صفات عباد الرحمن والمؤمنين المفلحين



محمود حسن حجازي



صفات عباد الرحمن والمؤمنين المفلحين

محمود حسن حجازي

1442-2021

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٢

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ النساء: ١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٠ – ٧١



قَالَ تَعَالَىٰ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ الحشر: ١٨

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كلام الله ﷻ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار..

قد ذكر الله ﷻ في كتابه العزيز صفات عباده، ويا لها من صفات من يتصف بها فهو يستحق أن يكون من عباده فعلاً؛ لأن الله سبحانه وتعالى نسبهم مع اسمه حيث قال عنهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ﴾ الفرقان: ٦٣، فما أجمل هذا الشرف وهذا النسب الذي ستحصل عليه، ولكن عليك الالتزام بهذه الصفات وتطبيقها على أرض الواقع حتى تحصل على هذا الشرف العظيم والنسب الرفيع، كما ذكر صفات المؤمنين وأنهم من المفلحين إذا قاموا بتطبيق هذه الصفات.

فإن الله ﷻ وعد عباده بالمنافع الجلية في الجنة أولاً، وبالتعظيم ثانياً، ثم بيّن أن صفتها الدوام والخلوص أيضاً.

وفي هذا الكتاب نريد ذكر صفات عباد الرحمن التي ذكره الله ﷻ في كتابه، وذكر صفات المؤمنين التي ذكره رب العزة في كتابه، نسأل الله ﷻ أن نكون من عباد الرحمن فعلاً، ومن المؤمنين المفلحين حقاً.





نسأل الله ﷻ النفع من هذا الكتاب وأن يرزقنا الإخلاص ويجعل هذا العمل خالصاً لوجهه العظيم.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ
وآله وصحبه أجمعين

كتبه
محمود حسن حجازي
أبو حازم



القسم الأول

صفات عباد الرحمن



صفات عباد الرحمن

"قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا





لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ الفرقان: ٦٣ - ٧٧

والآن نبدأ بذكر صفات عباد الرحمن حسب الترتيب في الآية السابقة وذلك على النحو التالي وأول هذه الصفات.





الصـــفـــة الأولـــى

الـتـــواضـــع

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ الفرقان: ٦٣

يقول الطبري: "﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ بالحلم والسكينة والوقار غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله عَزَّوَجَلَّ"[1]

قال البغوي: " ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ أي: أفاضل العباد. وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله، ﴿ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ أي: بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين، ولا متكبرين، والهون في اللغة: والرفق واللين"[2]

قال الرازي: " ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة، ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون، واعلم أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية، فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات، واعلم أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفهم بتسعة أنواع من الصفات.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرئ يمشون هوناً حال أو صفة للمشي بمعنى هينين أو بمعنى مشياً هيناً، إلا أن في وضع

---

[1] جامع البيان للطبري (19/ 293).
[2] تفسير البغوي (6/ 93).





المصدر موضع الصفة مبالغة، والهون الرفق واللين، والمعنى أن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع، ولا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء"[1]

يقول البيضاوي: "إضافتهم إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل، أو لأنهم الراسخون في عبادته على أن عباد جمع عابد كتاجر وتجار، هوناً هينين أو مشياً هيناً مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع"[2]

يقول وهبة الزحيلي: "أي وعباد الرحمن المخلصون الربانيون الذين لهم الجزاء الحسن من ربهم ﷻ هم الذين يمشون في سكينة ووقار، من غير تجبر واستكبار، يطؤون الأرض برفق، ويعاملون الناس بلين، لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً، وإنما بعزة وأنفة وهي عزة المؤمن المتواضع لله ﷻ، فالمراد بالهون السكينة والوقار، فالتواضع يكون بالعلم بالله ﷻ والخوف منه والمعرفة بأحكامه، والخشية من عذابه وعقابه"[3]

يقول الطنطاوي: "وعباد الرحمن الذين رضى الله سبحانه وتعالى عنهم وأرضاهم، من صفاتهم أنهم يمشون على الأرض مشياً ليناً رقيقاً، لا تكلف فيه ولا خيلاء ولا تصنع فيه ولا ضعف، وإنما مشيهم تكسوه القوة والجد، والوقار والسكينة"[4]

ويقول القرطبي: "هوناً تعني السكينة والوقار، يمشون على الأرض حلماء متواضعين"[5]

[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 480).
[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 130).
[3] التفسير المنير للزحيلي (109/ 105).
[4] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 217).
[5] تفسير القرطبي (13/ 68)





ويقول الصابوني في تفسيره: "الإضافة للتشريف أي العباد الذين يحبهم الله ﷻ وهم جديرون بالانتساب إليه هم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار، لا يضربون بأقدامهم أشراً وأبطراً"[1]

ويقول صاحب الظلال: "أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة، ليس فيها تكلف ولا تصنع ولا فيها خيلاء"[2]

فالتواضع هي أول الصفات التي يتصف بها عباد الله ﷻ، فهي إظهار التنازل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه، ومن درجات التواضع: التواضع للدين، وهو ألا يعارض بمعقول منقولاً، وهو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلام له والإذعان، والدرجة الثانية أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أخاً، وألا ترد على عدوك حقاً، وأن تقبل من المعتذر معاذيره، والدرجة الثالثة أن تتضع للحق فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة، ورؤية حقك في الصحبة.

يقول عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: "رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل"[3]

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "من تواضع تخشعاً لله رفعه الله يوم القيامة، ومن تطاول تعظماً وضعه الله يوم القيامة"[4]

يقول ابن عثيمين: "أي ساكنين متواضعين لله ﷻ، وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله ﷻ، ولعباده" [5]

---

[1] صفوة التفاسير للصابوني (339/2)
[2] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2577)
[3] التواضع والخمول لأبن أبي الدنيا (1/ 119)، إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 342)
[4] مساوئ الأخلاق للخرائطي (1/ 258)
[5] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 24)





إذا كان الكفار يرفضون أن يسجدوا للرحمن ﷻ، وأن يكونوا عباداً خاضعين له، فإن المؤمنين يخضعون له، ويسعدون بأن يكونوا عباداً له، عباد الرحمن يمشون على الأرض مشية سهلة هيِّنة، بسكينة ووقار وتواضع من غير تكبُّر أو بطر، ولا تعني هذه المشية البطء الشديد والتماوت، وتنكيس الرَّأس"[1]

قال القشيري: "الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وفّقوا للطاعات، فبرحمته وصلوا إلى التوفيق للطاعة، ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته فبرحمته وصلوا إلى طاعته، هكذا بيان الحقيقة، وبطاعتهم وصلوا إلى جنّته، هكذا لسان الشريعة، ومعنى ﴿ هَوۡنٗا ﴾ متواضعين متخاشعين، ويقال شرط التواضع وحده ألا يستحسن شيئاً من أحواله"[2]

قال السعدي: "العبودية لله ﷻ نوعان: عبودية لربوبيته فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله ﷻ مربوبون مدبرون، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ ﴾ مريم: ٩٣، وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته وهي عبودية أنبيائه وأوليائه وهي المراد هنا ولهذا أضافها إلى اسمه "الرحمن" إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ أي: ساكنين متواضعين لله ﷻ والخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ﷻ ولعباده"[3]

---

[1] التفسير المنهجي (7/ 59)
[2] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 648- 649).
[3] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 586.





قال الحسن البصري رضي الله عنه: "إن المؤمنين قوم ذلل، ذلت منهم -والله- الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، أما والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله سبحانه وتعالى تقطع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم يرَ لله عز وجل نعمة إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه"[1]

قال ابن عاشور: "عطف جملة على جملة، فالجملة المعطوفة هي ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾، فهو مبتدأ وخبره ﴿ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ وقيل: الخبر ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ والجملة المعطوف عليها جملة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾ فبمناسبة ذكر من أراد أن يذكر تخلص إلى خصال المؤمنين أتباع النبي صلى الله عليه وسلم حتى تستكمل السورة أغراض التنويه بالقرآن ومن جاء به ومن اتبعوه كما أشرنا إليه في الإلمام بأهم أغراضها في طالعة تفسيرها، وهذا من أبدع التخلص؛ إذ كان مفاجئاً للسامع مطمعاً أنه استطراد عارض كسوابقه حتى يفاجئه ما يؤذن بالختام وهو ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾

[1] تفسير ابن كثير (6/ 122).





والمراد بـ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ بادئ ذي بدء أصحاب رسول الله ﷺ فالصفات الثمان التي وصفوا بها في هذه الآية حكاية لأوصافهم التي اختصوا بها.

وإذ قد أجريت عليهم تلك الصفات في مقام الثناء والوعد بجزاء الجنة، علم أن من اتصف بتلك الصفات موعود بمثل ذلك الجزاء وقد شرفهم الله ﷻ بأن جعل عنوانهم عباده، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسم الرحمن لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾ الفرقان: ٦٠ ، فإذا جعل المراد من (عباد الرحمن) أصحاب النبي ﷺ كان الخبر في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى آخر المعطوفات وكان قوله الآتي: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ استئنافاً لبيان كونهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة.

وإذا كان المراد من (عباد الرحمن) جميع المؤمنين المتصفين بمضمون تلك الصلات كانت تلك الموصولات وصلاتها نعوتاً لـ (عباد الرحمن) وكان الخبر اسم الإشارة في قوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾، وفي الإطناب بصفاتهم الطيبة تعريض بأن الذين أبوا السجود للرحمن وزادهم نفوراً هم على الضد من تلك المحامد، تعريضاً تشعر به إضافة (عباد) إلى (الرحمن).

واعلم أن هذه الصلات التي أجريت على (عباد الرحمن) جاءت على أربعة أقسام:

قسم هو من التحلي بالكمالات الدينية وهي التي ابتدئ بها من قوله ﷻ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى قوله: ﴿ سَلَٰمًا ﴾





وقسم هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك وهو الذي من قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾

وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام وهو قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ وقسم من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة وهو قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿ لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

وظاهر قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ أنه مدح لمشية بالأرجل وهو الذي حمل عليه جمهور المفسرين.

وجوز الزجاج أن يكون قوله ﷻ: ﴿ يَمۡشُونَ ﴾ عبارة عن تصرفاتهم في معاشرة الناس فعبر عن ذلك بالانتقال في الأرض، فعلى الوجه الأول يكون تقييد المشي بأنه على الأرض ليكون في وصفه بالهون ما يقتضي أنهم يمشون كذلك اختياراً وليس ذلك عند المشي في الصعدات أو على الجنادل.

والهون: اللين والرفق، ووقع هنا صفة لمصدر المشي محذوف تقديره (مشياً) فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق.





والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم، وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله ﷻ والتخلق بآداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية فكانت هذه المشية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية، والتخلق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمن؛ لأن الرحمة ضد الشدة فالهون يناسب ماهيتها وفيه سلامة من صدم المارين"[1]

قال البقاعي: "ولما ذكر عباده الذين خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصاروا حزب الشيطان، ولم يصفهم إلى اسم من أسمائه، إيذاناً بإهانتهم لهوائهم عنده، وهم الذين صرح بهم قوله أول السورة ﴿ نَذِيرًا ﴾ وختم بالتذكر والشكر إشارة إلى عباده الذين أخلصهم لنفسه، وأشار إليهم سابقاً بتخصيص الوصف بالفرقان، فأتبع ذلك ذكرهم، فقال عاطفاً على جملة الكلام في قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ لكنه رفعهم بالابتداء تشريفاً لهم: ﴿ وَعِبَادُ ﴾ ويجوز أن يقال ولعله أحسن: أنه ﷻ لما وصف الكفار في هذه السورة بما وصفهم به من الفظاظة والغلظة على النبي ﷺ، وعداوتهم له، ومظاهرتهم على خالقهم، ونحو ذلك من جلافتهم، وختم بالتذكر والشكر، وكان التقدير: فعباد الشيطان لا يتذكرون ولا يشكرون، لما لهم من القسوة، عطف على هذا المقدر أضدادهم، واصفاً لهم بأضداد أوصافهم، مبشراً لهم بضد جزائهم، فقال:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ فأضافهم إليه رفعة لهم وإن كان كل الخلق عباده، وأضافهم إلى صفة وصف الرحمة الأبلغ الذي أنكره أولئك تبشيراً لهم؛ ثم وصفهم بضد ما

---

[1] التحرير والتنوير (19/ 66 – 68)





وصف به المتكبرين عن السجود، إشارة إلى أنهم تخلقوا من هذه الصفة التي أضيفوا إليها بأمر كبير، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ ﴾ وقال: ﴿ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ تذكيراً بما هم منه وما يصيرون إليه، وحثاً على السعي في معالي الأخلاق للترقي عنه، وعبر عن حالهم بالمصدر مبالغة في اتصافهم بمدلوله حتى كانوا إياه، فقال: ﴿ هَوْنًا ﴾ أي ذوي هون، أي لين ورفق وسكينة ووقار وإخبات وتواضع، لا يؤذون أحداً ولا يفخرون، رحمة لأنفسهم وغيرهم، غير متابعين ما هم فيه من الحرارة الشيطانية، فبرؤوا من حظوظ الشيطان، لأن من كان من الأرض وإليها يعود لا يليق به إلا ذلك، والأحسن أن يجعل هذا خبر العباد"[1]

ومن فوائد التواضع: أنه خلق كريم من أخلاق المؤمنين ودليل محبة رب العالمين، وهو طريق موصل إلى مرضاة الله وإلى جنته، وهو السبيل إلى القرب من الله عز وجل ومن ثم القرب من الناس، فهو عنوان سعادة العبد في الدنيا والآخرة، كما أن الله عز وجل يحب المتواضعين ويكلؤهم برعايته ويحيطهم بعنايته.[2]

ومن صور تواضع النبي ﷺ أنه كان يمنع أصحابه رضي الله عنهم من القيام له، وما ذلك إلا لشدة تواضعه، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا فقمنا له، فقال: "لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً"[3]

وكان خلق التواضع من الأخلاق التي اتصف بها ﷺ فكان خافض الجناح للكبير والصغير، والقريب والبعيد، والأهل والأصحاب، والرجل والمرأة، والصبي والصغير،

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (13/ 420).
[2] نظرة النعيم (4/ 1268)
[3] رواه أبي داود (4/ 358)



والعبد والجارية، والمسلم وغير المسلم، فالكل في نظره سواء، لا فضل لأحد على آخر إلا بالعمل الصالح.

الصفة الثانية

الحلم والكلام الطيب

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣

ومعنى ذلك إذا أُوذوا قابلوا الإساءة بالإحسان، **قال الحسن البصري** رضي الله عنه: "حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا، أي على نقيض خلق الجاهلية، ونجهل فوق جهل الجاهلين"[1]، وإنما يقول المؤمن للجاهل كلاماً موصوفاً بالرفق واللين.

يقول الطبري: "وإذا خاطبهم الجاهلون بالله عز وجل بما يكرهونه من القول، أجابوهم بالمعروف من القول، والسداد من الخطاب"[2]

يقول القشيري: "قيل سداد المنطق ويقال من خاطبهم بالقدح فهم يجاوبونه بالمدح له، ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم، الطاعنون فيهم، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرّفق، وحسن الخلق، والقول الحسن والكلام الطيب، ويقال يخبرون من جفاهم أنهم في أمان من المجافاة"[3]

قال الرازي: "﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أي نسلم منكم تسليماً، فأقيم السلام مقام التسليم، ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت، ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكي يمتنعوا، ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة، ويحتمل أن يكون المراد إظهار الحلم في مقابلة الجهل، قال الأصم: ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ أي سلام

---

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 177)
[2] جامع البيان للطبري (19/ 295).
[3] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 649)



توديع لا تحية، كقول إبراهيم لأبيه: سلام عليك ثم قال الكلبي وأبو العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع"[1]

قال البيضاوي: "﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ تسلماً منكم ومتاركة لكم لا خير بيننا ولا شر، أو سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم، ولا ينافيه آية القتال لتنسخه فإن المراد به الإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام"[2]

قال الشوكاني: "ذكر ﷻ أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه فلا يجهلون مع من يجهل ولا يسافهون أهل السفه"[3]

وقال النحاس: "ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم تقول العرب سلاماً: أي: تسلماً منك، أي: براءة منك، منصوب على أحد أمرين: إما على أنه مصدر لفعل محذوف، أي: قالوا سلمنا سلاماً، وهذا على قول سيبويه، أو على أنه مفعول به"[4]

قال القاسمي: "أي إذا خاطبهم السفهاء بالقول السيء لم يقابلوهم بمثله، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم، سواء كان بصيغة السلام كقولهم (سلام عليكم)، أو غيرها مما فيه لطف في القول أو عفو أو صفح أو كظم للغيظ، دفعاً بالتي هي أحسن"[5]

---
[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 481).
[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 130)
[3] فح القدير للشوكاني (4/ 99)
[4] الناسخ والمنسوخ للنحاس (1/ 603).
[5] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 436)





ويقول وهبة الزحيلي: "إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً"[1]

ويقول الصابوني في تفسيره: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما: أي إذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء قالوا قولاً يسلمون فيه الإثم"[2]

ويقول صاحب الظلال: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً: لا عن ضعف ولكن عن ترفع، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع"[3]

فالحلم هو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك، فهو أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد، فعن أنس بن مالك ﵁ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "التأني من الله، والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله، وما شيء أحب إلى الله من الحمد"[4]، وكان النبي ﷺ خير أسوة في ذلك فهو كان أكثر الناس حلماً، يقول أنس بن مالك ﵁: "كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء"[5]

---

[1] التفسير المنير (10/ 117)
[2] صفوة التفاسير للصابوني (2/ 339)
[3] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2578)
[4] شعب الإيمان (6/ 211)
[5] رواه البخاري (7/ 146)





ويقول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: "لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة الحلم"[1]

يقول الطنطاوي: "أي إذا خاطبهم الجاهلون بسفاهة وسوء أدب، لم يقابلوهم بالمثل، بل يقابلوهم بالقول الطيب، كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ القصص: ٥٥"[2]

يقول ابن عثيمين: "أي خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣، أي خاطبوهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذا الحال"[3]

يكون موقف المؤمنين من سفه السفهاء وأذى الجاهلين، فعندما يخاطبهم الجاهلون بسفه وحمق وطيش يترفعون عنهم، ولا ينزلون لمستواهم، ويقولون سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين، وهذا الموقف منهم ليس عن ضعف أو عجز، إنما هو ترفع وإكرام لأنفسهم، وصيانة لأوقاتهم وجهودهم، فلا ينفقونها فيما لا يليق"[4]

قال السعدي: " أي خطاب جهل بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف،﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أي: خاطبوهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل

[1] معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين وكاتب وحي النبي الأمين ﷺ (1/ 156)
[2] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 218)
[3] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 24)
[4] التفسير المنهجي (7/ 59)





بجهله. وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال"[1]

قال ابن عاشور: "وقرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي على الأرض هوناً بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم فعلمهم الله ﷻ متاركة السفهاء، فالجهل هنا ضد الحلم، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام وذلك معلوم في كثير من الشعر والنثر

وانتصب ﴿ سَلَٰمًا ﴾ على المفعولية المطلقة، وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها مما هو أشد مذمة مثل الكافرين؛ لأن هذا الوصف يشعر بأن الخطاب الصادر منهم خطاب الجهالة والجفوة، (والسلام) يجوز أن يكون مصدراً بمعنى السلامة، أي: لا خير بيننا ولا شر فنحن مسلمون منكم، ويجوز أن يكون مراداً به لفظ التحية فيكون مستعملاً في لازمه وهو المتاركة؛ لأن أصل استعمال لفظ السلام في التحية أنه يؤذن بالتأمين، أي: عدم الإهاجة، والتأمين: أول ما يلقى به المرء من يريد إكرامه، فتكون الآية في معنى قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ القصص: ٥٥"[2]

قال البقاعي: "ولما ذكر ما أثمره العلم من الفعل في أنفسهم، أتبعه ما أنتجه الحلم من القول لغيرهم فقال: ﴿ وَإِذَا ﴾ دون "إن" لقضاء العادة بتحقق مدخولها، ولم يقل: والذين كبقية المعطوفات، لأن الخصلتين كشيء واحد من حيث رجوعهما إلى التواضع

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 586.
[2] التحرير والتنوير (19/ 69).





﴿ خَاطَبَهُمُ ﴾ خطاباً ما، بجهل أو غيره وفي وقت ما ﴿ ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾ أي الذين يفعلون ما يخالف العلم والحكمة ﴿ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ أي ما فيه سلامة من كل سوء، وليس المراد التحية – نقل ذلك سيبويه عن أبي الخطاب، قال: "لأن الآية فيما زعم مكية، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، ولكنه على قولك: تسليماً لا خير بيننا وبينكم ولا شراً، فلا حاجة إلى ادعاء نسخها بآية القتال ولا غيرها، لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة، وأسلم للعرض والورع، وكأنه أطلق الخطاب إعلاماً بأن أكثر قول الجاهل الجهل"[1]

ومن فوائد الحلم: أنه صفة تكسب المرء محبة الله عز وجل ورضوانه، ودليل كمال العقل وسعة الصدر وامتلاك النفس، وإعانة الناس له، ويستحق صاحبها الدرجات العلى والجزاء الأوفى.[2]

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (13/ 421 - 422)
[2] نظرة النعيم (5/ 1752)





الصفة الثالثة
التهجد ليلاً

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ الفرقان: ٦٤

ومعنى ذلك إن سيرتهم في الليل كسيرتهم في النهار. فنهارهم خير نهار، وليلهم خير ليل، فإذا أمسوا وأدركوا الليل باتوا ساجدين قائمين لربهم ﷻ، ويصلون بعض الليل أو أكثره طائعين عابدين، يقول ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها: "من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ﷻ ساجداً وقائماً"[1]

يقول الطبري: "والذين يبيتون لربهم ﷻ يصلون لله ﷻ، يراوحون بين سجود في صلاتهم وقيام، وقوله: ﴿ وَقِيَٰمًا ﴾ جمع قائم، كما الصيام جمع صائم"[2]

يقول القشيري: "يبيتون لربهم ﷻ ساجدين، ويصبحون واجدين فوجد صباحهم ثمرات سجود أرواحهم، كذا في الخبر: "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار"، أي عظم ماء وجهه عند الله سبحانه وتعالى، وأحسن الأشياء ظاهر بالسجود محسّن وباطن بالوجود مزيّن، ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود"[3]

يقول الزمخشري: "البيتوتة: خلاف الظلول، وهو أن يدركك الليل، نمت أو لم تنم، وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاته وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً، وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء، والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره، يقال: فلان يظل صائماً ويبيت قائماً"[4]

---
[1] تفسير القرطبي (13/ 72)، الأمور الميسرة لقيام الليل (1/ 42)
[2] جامع البيان للطبري (19/ 296)
[3] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 649).
[4] الكشاف للزمخشري (3/ 292)



يقول الرازي: "واعلم أنه ﷻ لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: أحدهما: ترك الإيذاء، وهو المراد من قوله ﷻ: ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ والآخر تحمل التأذي، وهو المراد من قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق في النهار، فبين في هذه الآيات سيرتهم في الليالي عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله ﷻ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦ ﴾ السجدة: ١٦"[1]

قال الزجاج: "كل من أدركه الليل قيل بات وإن لم ينم كما يقال بات فلان قلقاً، ومعنى ﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ ﴾ أن يكونوا في لياليهم مصلين، ثم اختلفوا فقال بعضهم: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قل، فقد بات ساجداً وقائماً، وقيل ركعتين بعد المغرب وأربعاً بعد العشاء الأخيرة، والأولى أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائماً ويبيت قائماً، قال الحسن يبيتون لله ﷯ على أقدامهم ويفرشون له وجوههم تجري دموعهم على خدودهم خوفا من ربهم ﷯"[2]

يقول البيضاوي: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ في الصلاة، وتخصيص البيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أحمز وأبعد عن الرياء وتأخير القيام للروي وهو جمع قائم أو مصدر أجري مجراه"[3]

---

[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 481)
[2] التفسير الكبير للرازي (24/ 481)
[3] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 130).



قال السيوطي: "أي ينتصبون لله ﷻ على أقدامهم ويفترشون وجوههم سجداً لربهم ﷻ تجري دموعهم على خدودهم خوفاً من ربهم ﷻ"[1]

يقول أبو السعود: "بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم ﷻ أي يكونون ساجدين لربهم ﷻ وقائمين أي يحيون الليل كلاً أو بعضاً بالصلاة وقيل من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل"[2]

عباد الرحمن في نهارهم يتعاملون مع الناس بكرامة ووقار، أمَّا في ليلهم فهم في صلاة وقيام وركوع وسجود، ويتمتَّعون بمناجاة الله ﷻ وعبادته، ينام الناس نوماً مريحاً لذيذاً، وهم مشغولون عنه بما هو أمتع وألذُّ منه، فهم قائمون ساجدون لله ﷻ"[3]

يقول القاسمي: " أي يكون لهم في الليل فضل صلاة وإنابة، كما قال ﷻ: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ ﴾ الذاريات: ١٧ - ١٨، وقوله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ۝١٦ ﴾ السجدة: ١٦، وقوله: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩ ﴾ الزمر: ٩، (والبيتوتة) لغة، الدخول في الليل. يقال: بات يفعل كذا يبيت ويبات، إذا فعله ليلاً، وقد تستعار البيتوتة للكينونة مطلقاً إلا أن الحقيقة أولى؛ لكثرة ما ورد في معناها مما تلونا، ولذلك قال السلف: في الآية مدح قيام الليل والثناء على أهله، وفي قوله: ﴿ لِرَبِّهِمۡ ﴾

[1] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/ 274).
[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا التاب الكريم لأبي السعود (6/ 228).
[3] التفسير المنهجي (7/ 59)



إشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم، لما أن ذلك هو الذي يستتبع أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله ﷻ وَقِياماً جمع قائم أو مصدر أجري مجراه"[1]

يقول ابن عاشور: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ قال: هذا وصف ليلهم.

والقيام: جمع قائم كالصحاب، والسجود والقيام ركنا الصلاة، فالمعنى: يبيتون يصلون، فوقع إطناب في التعبير عن الصلاة بركنيها تنويها بكليهما، وتقديم ﴿ سُجَّدٗا ﴾ على ﴿ وَقِيَٰمٗا ﴾ للرعي على الفاصلة مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود، وهو ما بينه النبي ﷺ بقوله: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"[2]، وكان أصحاب رسول الله ﷺ كثيري التهجد كما أثنى الله ﷻ عليهم بذلك بقوله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴿١٦﴾ ﴾ السجدة: ١٦"[3]

قال البقاعي: " ولما ذكر ما بينهم وبين الخلق من القول والفعل، وكان الغالب على ذلك أن يكون جلوة نهاراً، ذكر ما بينهم وبين خالقهم من ذلك خلوة ليلاً، وذكر هذه المعطوفات التي هي صفات بالواو، تنبيهاً على أن كل واحدة منها تستقل بالقصد لعظم خطرها، وكبر أثرها، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ ﴾ من البيتوتة: أن يدركك الليل نمت أو لم تنم، وهي خلاف الظلول؛ وأفاد الاختصاص بتقديم

---

[1] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 436).
[2] رواه مسلم (1/ 350).
[3] التحرير والتنوير (19/ 70)



﴿ لِرَبِّهِمۡ ﴾ أي المحسن إليهم برحمانيته، يحيون الليل رحمة لأنفسهم، وشكراً لفضله.

ولما كان السجود أشد أركان الصلاة تقريباً إلى الله ﷻ، لكونه أنهى الخضوع مع أنه الذي أباه الجاهلون، قدمه لذلك ويعلم بادىء بدء أن القيام في الصلاة فقال:

﴿ سُجَّدٗا ﴾ وأتبعه ما هو تلوه في المشقة تحقيقاً؛ لأن السجود على حقيقته فيتمحص الفعلان للصلاة، فقال: ﴿ وَقِيَٰمٗا ﴾ أي ولم يفعلوا فعل الجاهلين من التكبر عن السجود، بل كانوا – كما قال الحسن رضي الله عنه: "نهارهم في خشوع، وليلهم في خضوع"[1]

قال السعدي: " أي يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم عز وجل متذللين له كما قال ﷻ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ السجدة: ١٦ – ١٧"[2]

ويقول وهبة الزحيلي: "التهجد ليلاً وهي العبادة الخالصة لله عز وجل في جوف الليل، فإنها أكثر خشوعاً، وأضبط معنى، وأبعد عن الرياء"[3]

ويقول أيضاً في تفسيره لهذه الآية: "أي إن سيرتهم في الليل كسيرتهم في النهار، فنهارهم خير نهار، وليلهم خير ليل، فإذا أمسوا أدركوا الليل باتوا ساجدين قائمين لربهم عز وجل، يصلّون بعض الليل أو أكثره، طائعين عابدين، كما قال ﷻ: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 422).
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 586.
[3] التفسير المنير (10/ 125)





مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الذاريات: ١٧ – ١٨، وقال ﷻ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ السجدة: ١٦"[1]

وهم الذين يحيون الليل بالصلاة ساجدين لله ﷻ على جباههم أو قائمين على أقدامهم، يكونوا مشغلين بالخالق ﷻ.

ويقول صاحب الظلال: "التعبير يبرز من الصلاة السجود والقيام لتصوير حركة عباد الرحمن في جنح الليل والناس نيام فهؤلاء قوم يبيتون لربهم ﷻ سجداً وقياماً يتوجهون لربهم ﷻ وحده ويقومون له وحده ويسجدون له وحده، هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ بما هو أروح منه وأمتع مشغولون بالتوجه إلى ربهم ﷻ وتعليق أرواحهم وجوارحهم به، ينام الناس وهم قائمون ساجدون"[2]

يقول الطنطاوي: "وصف ﷻ حالهم مع خالقهم ﷻ فقال:﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ والبيتوتة أن يدركك الليل سواء كنت نائماً أم غير نائم، أي: أن من صفاتهم أنهم يقضون جانباً من ليلهم، تارة ساجدين على جباههم لله ﷻ وتارة قائمين على أقدامهم بين يديه ﷻ، وخص وقت الليل بالذكر؛ لأن العبادة فيه أخشع، وأبعد عن الرياء، وشبيه بهذه الآية قوله ﷻ: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴿٩﴾ ﴾ الزمر: ٩ "[3]

---

[1] التفسير المنير (10/ 118)

[2] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2578)

[3] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 218)





ويقول ابن عثيمين: "أي يكثرون من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم عز وجل، متذللين له"[1]

"عباد الرحمن في نهارهم يتعاملون مع الناس بكرامة ووقار، أما في ليلهم فهم في صلاة وقيام وركوع وسجود، ويتمتعون بمناجاة الله عز وجل وعبادته، ينام الناس نوماً مريحاً لذيذاً، وهم مشغولون عنه بما هو أمتع وألذ منه، فهم قائمون ساجدون لله عز وجل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الذاريات: ١٧ – ١٨"[2]

ومن فوائد قيام الليل: أنه دليلٌ على صدق المسلم، ودليلٌ على مَحبّته لله عز وجل، فكلما زاد المحبُّ حباً لحبيبه زاد قربه منه، وكذلك من ازداد حباً لله عز وجل ازداد قربه منه، وأفضل طريق للقرب من الله سبحانه وتعالى هي الصلاة، كما أن قيام اللّيل يزيد من نشاط المسلم وتحفزه على القيام بأعماله على أتمّ وجه، وتجعله صافي الذهن، وقريباً مما يرضي الله عز وجل بعيداً عما يسخطه.

[1] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 24)
[2] التفسير المنهجي (7/ 59)





الصفة الرابعة

الخوف من عذاب الله ﷻ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ الفرقان: ٦٥ - ٦٦

يقول ابن عاشور: "دعاؤهم هذا أمارة على شدة مخافتهم الذنوب فهم يسعون في مرضاة ربهم ﷻ لينجوا من العذاب، فالمراد بصرف العذاب: إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح وتوفيره واجتناب السيئات، وجملة ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ يجوز أن تكون حكاية من كلام القائلين، ويجوز أن تكون من كلام الله ﷻ معترضة بين اسمي الموصول، وعلى كل فهي تعليل لسؤال صرف عذابها عنهم، **والغرام:** الهلاك الملح الدائم، وغلب إطلاقه على الشر المستمر، وجملة ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ يجوز أن تكون حكاية لكلام القائلين فتكون تعليلاً ثانياً مؤكداً لتعليلهم الأول، وأن تكون من جانب الله ﷻ دون التي قبلها فتكون تأييداً لتعليل القائلين، وأن تكون من كلام الله ﷻ مع التي قبلها فتكون تكريراً للاعتراض.

والمستقر: مكان الاستقرار، والاستقرار: قوة القرار، **والمقام:** اسم مكان الإقامة، أي: ساءت موضعاً لمن يستقر فيها بدون إقامة مثل عصاة أهل الأديان ولمن يقيم فيها من المكذبين للرسل المبعوثين إليهم"[1]

[1] التحرير والتنوير (19/ 70 – 71).





يقول الطبري: "والذين يدعون الله ﷻ أن يصرف عنهم عقابه وعذابه حذراً منه ووجلاً، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يقول: إن عذاب جهنم كان غراماً ملحاً دائماً لازماً غير مفارق من عذِّب به من الكفار، ومهلكاً له"[1]

يقول البغوي: "﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملحاً دائماً، لازماً غير مفارق من عذب به من الكفار، ومنه سمي الغريم لطلبه حقه وإلحاحه على صاحبه وملازمته إياه، "والغرام": الشر اللازم، وقيل: "غراماً" هلاكاً، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بئس موضع قرار وإقامة"[2]

قال الزمخشري: "غراماً هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً، ومنه: الغريم: لإلحاحه وإلزامه، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه، إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله ﷻ في صرف العذاب عنهم، كقوله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ المؤمنون: ٦٠، ساءت في حكم "بئست" وفيها ضمير مبهم يفسره: مستقراً، والمخصوص بالذم محذوف، معناه: ساءت مستقراً ومقاماً هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها، ويجوز أن يكون ساءت بمعنى: أحزنت، وفيها ضمير اسم إن. ومستقراً حال أو تمييز، والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين، وأن يكونا من كلام الله ﷻ وحكاية لقولهم"[3]

---

[1] جامع البيان للطبري (19/ 296).
[2] تفسير البغوي (6/ 94).
[3] الكشاف للزمخشري (3/ 292).





يقول البيضاوي: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ لازماً ومنه الغريم لملازمته، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق وجلون من العذاب مبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم.

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئست مستقراً، وفيها ضمير مبهم يفسره المميز والمخصوص بالذم ضمير محذوف به ترتبط الجملة باسم إن، أو أحزنت وفيها ضمير اسم أن ومستقراً حال أو تمييز والجملة تعليل للعلة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله سبحانه وتعالى"[1]

قال النسفي: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ هلاكاً ولازماً ومنه الغريم لملازمته وصفهم بإحياء الليل ساجدين قائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله عز وجل في صرف العذاب عنهم، ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي: إن جهنم، و﴿ سَآءَتْ ﴾: في حكم :بئست، وفيها ضمير مبهم يفسره ﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾ والمخصوص بالذم محذوف معناه: ﴿ سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها أو

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 130).



بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم إن، و﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾ حال أو تمييز ويصح أن يكون التعليلان متداخلين ومترادفين وأن يكونا من كلام الله ﷻ وحكاية لقولهم"[1]

قال القاسمي: "﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي: هلاكاً دائماً، والمراد من قولهم ذلك، فزعهم منها، ووجلهم الشديد المستتبع لتمسكهم بالتقوى، واعتصامهم بالسبب الأقوى، لا مجرد قلقلة اللسان، بلا تأثر من الجنان، فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى عز وجل، ويتعوذوا به من سعيرها، إلا لعلمهم بسوء حالها، ومقتضى العلم بالشيء إيفاؤه حقه والعمل بموجبه، ولذا قال ﷻ: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي: موضع استقرار وإقامة"[2]

قال البقاعي: "ولما ذكر تهذيبهم لأنفسهم للخلق والخالق، أشار إلى أنه لا إعجاب عندهم، بل هم وجلون، وأن الحامل لهم على ذلك الإيمان بالآخرة التي كذب بها الجاهلون، ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾ المؤمنون: ٦٠، وقدموا الدعاء بالنجاة اهتماماً بدرء المفسدة، وإشعاراً بأنهم مستحقون لذلك وإن اجتهدوا، لتقصيرهم عن أن يقدروه ﷻ حق قدره فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ الذي أحاط بنا لاستحقاقنا إياه إلا أن يتداركنا عفوك ورحمتك، بما توفقنا له من لقاء من يؤذينا بطلاقة الوجه، لا بالتجهم، ثم علل سؤالهم بقولهم: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ ﴾ أي

[1] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (2/ 548).
[2] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 436 -437)



كوناً جبلت عليه ﴿ غَرَامًا ﴾ أي هلاكاً وخسراناً ملحاً محيط بمن تعلق به مذلاً له، دائماً بمن غرى به، لازماً له لا ينفك عنه ونحن كنا نسير على من آذانا.

ولما ثبت لها هذا الوصف، أنتج قوله: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ ﴾ أي تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء، وهي في معنى بئست في جميع المذام ﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾ أي من جهة موضع استقرار ﴿ وَمُقَامًا ﴾ أي موضع إقامة"[1]

يقول السعدي: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي: ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي: ملازماً لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه،﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ وهذا منهم على وجه التضرع لربهم ﷻ، وبيان شدة حاجتهم إليه وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا منة الله ﷻ عليهم، فإن صرف الشدة بحسب شدتها وفظاعتها يعظم وقعها ويشتد الفرح بصرفها"[2]

قال الرازي: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول، وقال الحسن: "خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقاً من عذاب جهنم"، وقوله ﷻ: ﴿ غَرَامًا ﴾ أي هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً، ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه،

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 423)

[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 586.

ويقال فلان مغرم بالنساء إذا كان مولعاً بهن، وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع، وعن محمد بن كعب في غراماً أنه سأل الكفار ثمن نعمه فما أدوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار، واعلم أنه ﷻ وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله ﷻ في صرف العذاب عنهم كقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ المؤمنون: ٦٠، أما قوله ﷻ: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ فقوله ﷻ: ﴿ سَآءَتْ ﴾ في حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره ﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾، والمخصوص بالذم محذوف معناه ﴿ سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها، ويجوز أن يكون ساءت بمعنى أحزنت، وفيها ضمير اسم إن، ومستقراً حال أو تمييز، فإن قيل دلت الآية على أنهم سألوا الله ﷻ أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين: إحداهما أن عذابها كان غراماً، وثانيهما: أنها ساءت مستقراً ومقاماً، فما الفرق بين الوجهين؟ وأيضاً فما الفرق بين المستقر والمقام؟ قلنا المتكلمون ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة فقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ إشارة إلى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ إشارة إلى كونها دائمة، ولا شك في المغايرة، أما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من أهل الإيمان؛ فإنهم يستقرون في النار ولا يقيمون فيها، وأما الإقامة فللكفار، واعلم أن قوله ﷻ: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ



﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ يمكن أن يكون من كلام الله ﷻ، ويمكن أن يكون حكاية لقولهم"[1]

قال أبو السعود: "﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ أي: في أعقاب صلواتهم، أو في عامة أوقاتهم ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي: شراً دائماً وهلاكاً لازماً، وفيه مزيد مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون إلى الله ﷻ في صرفه عنهم مختلفين بأعمالهم كقوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ المؤمنون: ٦٠، ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها في نفسها إثر تعليله بسوء حال عذابها، وقد جوز أن يكون تعليلاً للأولى وليس بذاك، ﴿ سَاءَتْ ﴾ في حكم "بئست"، وفيها ضمير مبهم يفسره مستقراً، والمخصوص بالذم محذوف، معناه: ﴿ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم "إن" وجعلها خبراً لها، قيل: ويجوز أن يكون ﴿ سَاءَتْ ﴾ بمعنى "أحزنت"، وفيها ضمير اسم "إن"، ﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾ حال، أو تمييز وهو بعيد خال عما في الأول من المبالغة في بيان سوء حالها ، وكذا جعل التعليلين من جهته ﷻ"[2]

---

[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 481 – 482)
[2] إرشادات العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 228 – 229)





يقول القشيري: "يجتهدون غاية الاجتهاد، ويستفرغون نهاية الوسع، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة، ويقفون موقف أهل الاعتذار، ويخاطبون بلسان التنصّل"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "أي أنهم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله ﷻ، سواء في سجودهم وقيامهم؛ لأن عذاب جهنم لازم دائم غير مفارق، وبئس المستقر والمقام، وهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلى النجاح، أي والذين يخافون ربّهم ﷻ ويدعونه في وجل، ويقولون في حذر: ربنا أبعد عنا عذاب جهنم وشدته، ثم ذكر ﷻ أن علة سؤالهم ودعائهم شيئان:

الأول: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

أي إن عذابها كان ملازماً دائماً للإنسان العاصي، لزوم الدائن الغريم لمدينه أو هلاكاً وخسراناً لازماً.

الثاني: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

إي إن جهنم بئس المنزل مستقراً ومنظراً يستقر فيه، وبئس المقيل مقاماً وهذا أمر لا شك فيه يعلمه كل من اكتوى بشيء من نار الدنيا."[2]

ويقول الصابوني في تفسيره: "أي يدعون ربهم ﷻ أن ينجيهم من عذاب النار، ويبتهلون إليه أن يدفع عنهم عذابها، لأن عذابها كان لازماً دائماً غير مفارق، فهي بئس منزلاً ومكان إقامة فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون من عذاب الله ﷻ"[3]

---

[1] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 649)
[2] التفسير المنير (10/ 118- 126).
[3] صفوة التفاسير للصابوني (2/ 339)





ويقول صاحب الظلال: "التعبير يبرز من الصلاة السجود والقيام لتصوير حركة عباد الرحمن في جنح الليل والناس نيام فهؤلاء قوم يبيتون لربهم ﷻ سجداً وقياماً يتوجهون لربهم ﷻ وحده ويقومون له وحده ويسجدون له وحده، هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ بما هو أروح منه وأمتع مشغولون بالتوجه إلى ربهم ﷻ وتعليق أرواحهم وجوارحهم به، ينام الناس وهم قائمون ساجدون، وهم في قيامهم وسجودهم تمتلئ قلوبهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم يقولون ﴿ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ ﴾ وما رأوا جهنم ولنهم آمنوا بوجودها وتمثلوا صورتها مما جاءهم في القرآن الكريم، وعلى لسان رسول الله ﷺ فهذا الخوف النبيل إنما هو ثمرة الإيمان العميق وثمرة التصديق، وهم يتوجهون إلى ربهم ﷻ في خشوع ليصرف عنهم عذاب جهنم لا يطمئنهم أنهم يبيتون لربهم ﷻ سجداً وقياماً فهم لما يخالج قلوبهم من التقوى يستقلون عملهم وعبادتهم ولا يرون فيها ضماناً ولا أماناً من النار إن لم يتداركهم فضل الله ﷻ وسماحته وعفوه ورحمته، فيصرف عنهم عذاب جهنم.

ويرتعش تعبيرهم وهم يتضرعون إلى ربهم ﷻ خوفاً وفزعاً إن عذابها كان غراماً أي ملازماً لا يتحول عن صاحبه ولا يفارقه، فهذا ما يجعله مروعاً مخيفاً.

إنها ساءت مستقراً ومقاماً: هل أسوأ من جهنم مكاناً يستقر فيه الإنسان ويقيم، وأين الاستقرار وهي النار وأين المقام وهو التقلب على اللظى ليل نهار"[1]

---

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2578)





يقول الطنطاوي: "﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ أي: في عامة أحوالهم، يا ربنا بفضلك وإحسانك ﴿ اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ بأن تبعده عنا وتبعدنا عنه، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي: إن عذابها كان لازماً دائماً غير مفارق، منه سمى الغريم غريماً لملازمته لغريمه، ويقال: فلان مغرم بكذا، إذا كان ملازماً لمحبته والتعلق به، ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ وساءت بمعنى بئست، والمخصوص بالذم محذوف، أي: إن جهنم بئست مستقراً لمن استقر بها، وبئست مقاماً لمن أقام بها، فالجملة الكريمة تعليل آخر، لدعائهم بأن يصرفها ربهم عز وجل عنهم"[1]

يقول ابن عثيمين: "أي ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب، فإن عذابها ملازماً لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه، وهذا منهم على وجه التضرع لربهم عز وجل، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا مِنَّة الله عز وجل عليهم، فإن صرف الشدة بحسب شدتها وفظاعتها يعظم وقعها ويشتد الفرح بصرفها"[2]

"يدعو عباد الرحمن ربَّهم عز وجل في قيامهم وسجودهم، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، ويتذكَّرون جهنَّم، فيعوذون بالله سبحانه وتعالى منها، ويسألونه أن يصرف ويبعد عذابها، لأنَّ عذابها غرام ملازم لصاحبه، لا يفارقه ولا يبتعد عنه، فهو كالغريم الملازم لغريمه، والكافر مخلَّد في جهنَّم، معذَّب بعذابها الممتد، وجهنَّم ساءت مستقراً له يستقرُّ فيها

---

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 218).
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 25)





مخلَّداً، وساءت مقاماً له، يجعلها دار إقامة مؤبَّدة، وكيف يكون الاستقرار والإقامة في نار مستعرة وعذاب دائم"[1]

ومن فوائد الخوف: الفوز بالجنة والنجاة من النار، والأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة، ودليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، ويثمر محبة الله عز وجل وطاعته، وسبب لسعادة العبد في الدارين، وليل صفاء القلب وطهارة النفس، وسبب لهداية القلب، ويورث المسلم الشفقة على الخلق، ويجعل الإنسان يخلص عمله لله عز وجل وألا يضيعه بالترك أو المعصية، ويحمل الإنسان المسلم على التخلق بالأخلاق الحسنة وتجنب الكبر والعجب.[2]

---

[1] التفسير المنهجي (7/ 59)
[2] نظرة النعيم (5/ 1900)





الـصـفـة الـخـامـسـة

الاعـتـدال في الإنـفـاق

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾ الفرقان: ٦٧

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "هم المؤمنون لا يسرفون فينفقون في معصية الله ﷻ، ولا يقترون فيمنعون حقوق الله ﷻ"[1]

قال الزجاج: "أن الإسراف النفقة في معصية الله ﷻ، وأنه لا إسراف في الإنفاق فيما قرب إلى الله ﷻ، وكل ما أنفق في معصية الله ﷻ فإسراف، لأن الإسراف مجاوزة الحد"[2]

قال الطبري: "والذين إذا أنفقوا أموالهم لم يسرفوا في إنفاقها، ثم اختلف أهل التأويل في النفقة التي عناها الله ﷻ في هذا الموضع، وما الإسراف فيها والإقتار، فقال بعضهم: الإسراف ما كان من نفقة في معصية الله ﷻ وإن قلت: قال: وإياها عني الله ﷻ، وسماها إسرافاً، قالوا: والإقتار: المنع من حقّ الله ﷻ"[3]

قال ابن عاشور: " أفاد قوله ﴿ إِذَآ أَنفَقُواْ ﴾ أن الإنفاق من خصالهم فكأنه قال: والذين ينفقون وإذا أنفقوا إلخ، وأريد بالإنفاق هنا الإنفاق غير الواجب وذلك إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه؛ لأن الإنفاق الواجب لا يذم الإسراف فيه، والإنفاق

---

[1] جامع البيان للطبري (17/ 497).
[2] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (4/ 75).
[3] جامع البيان للطبري (17/ 498)





الحرام لا يحمد مطلقاً بله أن يذم الإقتار فيه على أن في قوله ﴿ إِذَآ أَنفَقُواْ ﴾ إشعاراً بأنهم اختاروا أن ينفقوا ولم يكن واجباً عليهم.

والإسراف: تجاوز الحد الذي يقتضيه الإنفاق بحسب حال المنفق وحال المنفق عليه. وتقدم معنى الإسراف في قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا ٦ ﴾ النساء: ٦، وقوله: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ ﴾ الأنعام: ١٤١، والإقتار عكسه، وكان أهل الجاهلية يسرفون في النفقة في اللذات ويغلون السباء في الخمر ويتممون الأيسار في الميسر، **والإقتار والقتر**: الإحجاف والنقص مما تسعه الثروة ويقتضيه حال المنفق عليه، وكان أهل الجاهلية يقترون على المساكين والضعفاء؛ لأنهم لا يسمعون ثناء العظماء في ذلك، والإشارة في قوله ﷻ: ﴿ بَيۡنَ ذَٰلِكَ ﴾ إلى ما تقدم بتأويل المذكور، أي: الإسراف والإقتار، والقوام بفتح القاف: العدل والقصد بين الطرفين، والمعنى أنهم يضعون النفقات مواضعها الصالحة كما أمرهم الله ﷻ فيدوم إنفاقهم وقد رغب الإسلام في العمل الذي يدوم عليه صاحبه، وليسير نظام الجماعة على كفاية دون تعريضه للتعطيل فإن الإسراف من شأنه استنفاد المال فلا يدوم الإنفاق، وأما الإقتار فمن شأنه إمساك المال فيحرم من يستأهله، وقوله ﷻ: ﴿ بَيۡنَ ذَٰلِكَ ﴾ خبر (كان)، و ﴿ قَوَامٗا ﴾ حال مؤكدة لمعنى ﴿ بَيۡنَ ذَٰلِكَ ﴾ وفيها إشعار بمدح ما بين ذلك بأنه الصواب الذي لا عوج فيه، ويجوز أن يكون ﴿ قَوَامٗا ﴾ خبر





(كان) و ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ ظرفاً متعلقاً به، وقد جرت الآية على مراعاة الأحوال الغالبة في إنفاق الناس"[1]

قال القرطبي: "والقوام أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوساطها، ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه يتصدق بجميع ماله؛ لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك"[2]

والمراد من النفقة نفقة الطاعات في المباحات، فهذه يطالب فيها العبد ألا يفرط فيها حتى يضيع حقاً آخر أو عيالاً، وألا يضيق أيضاً ويقتر، حتى يجيع العيال ويفرط في الشح والحسن في ذلك هو القوام أي العدل والقوام في كل واحد بحسب حاله وعياله وصبره وجلده على الكسب وخير الأمور أوساطها، وهذه الوسطية خير للعبد في دينه وصحته ودنياه وآخرته، أما النفقة في معصية الله عز وجل فهي محظور حظرته الشريعة قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك التعدي على مال الغير وهو حرام أيضاً.

قال الزمخشري: "القتر والإقتار والتقتير: التضييق الذي هو نقيض الإسراف، **والإسراف:** مجاوزة الحد في النفقة، ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير، وبمثله أمر رسول الله ﷺ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴿٢٩﴾ ﴾ الإسراء: ٢٩، وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي، فأما في القرب فلا إسراف، وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير، والقوام: العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما، ونظير القوام من

---

[1] التحرير والتنوير (19/ 71 – 72)

[2] تفسير القرطبي (13/ 73).





الاستقامة: السواء من الاستواء وقرئ: ﴿ قِوَامًا ﴾ بالكسر، وهو ما يقام به الشيء، يقال: أنت قوامنا، بمعنى ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص، والمنصوبان أعني بين ذلك قواماً: جائز أن يكونا خبرين معا، وأن يجعل بين ذلك لغواً، وقواماً مستقراً، وأن يكون الظرف خبراً، و﴿ قَوَامًا ﴾ حالاً مؤكدة، وأجاز الفراء أن يكون ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ اسم كان، على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن"[1]

قال القشيري: "الإسراف أن تنفق في الهوى وفي نصيب النّفس، فأمّا ما كان لله ﷻ فليس فيه إسراف، والإقتار ما كان ادخاراً عن الله ﷻ، فأمّا التضييق على النّفس منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتتعود الاجتزاء باليسير فليس بالإقتار المذموم"[2]

قال الرازي: "والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذي هو نقيض الإسراف، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة، وذكر المفسرون في الإسراف والتقتير وجوها:

أحدها: وهو الأقوى، أنه ﷻ وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير، وبمثله أمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴿٢٩﴾ ﴾ الإسراء: ٢٩

وثانيها: وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك، أن الإسراف الإنفاق في معصية الله ﷻ، والإقتار منع حق الله ﷻ، وقال الحسن: "لم ينفقوا في معاصي الله ﷻ ولم يمسكوا عما ينبغي، وذلك قد يكون في الإمساك عن حق الله ﷻ، وهو أقبح

[1] الكشاف للزمخشري (3/ 292 – 293).
[2] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 650).





التقتير، وقد يكون عما لا يجب، ولكن يكون مندوباً، مثل الرجل الغني الكثير المال إذا منع الفقراء من أقاربه.

وثالثها: المراد بالسرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا، وإن كان من حلال؛ فإن ذلك مكروه؛ لأنه يؤدي إلى الخيلاء، والإقتار هو التضييق، فالأكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف، وإن أكل بقدر الحاجة فذاك إقتار، وهذه الصفة صفة أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة، ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعهم ويعينهم على عبادة ربهم عز وجل، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد"[1]

قال البيضاوي: "﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ ﴾ لم يجاوزوا حد الكرم، ﴿ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾ ولم يضيقوا تضييق الشحيح، وقيل الإسراف هو الإنفاق في المحارم والتقتير منع الواجب، ﴿ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ وسطاً عدلاً سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي سواء لاستوائهما، وقرئ بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان أو حال مؤكدة، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغواً، وقيل إنه اسم كان لكنه مبني لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف؛ لأنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه"[2]

قال القاسمي: "أي: لم يجاوزوا الحد في الإنفاق، ولم يضيقوا على أنفسهم وأهليهم وما يعروهم بخلاً ولؤماً، بل كانوا في ذلك متوسطين، وخير الأمور أوسطها"[3]

---
[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 482)
[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 130)
[3] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 437).





يقول أبو السعود: "﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ ﴾ لم يجاوزوا حد الكرم ﴿ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾ ولم يضيقوا تضييق الشحيح، وقيل: الإسراف: هو الإنفاق في المعاصي، والقتر: منع الواجبات والقرب، وقرئ بكسر التاء مع فتح الياء، وبكسرها مخففة ومشددة مع ضم الياء، ﴿ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: بين ما ذكر من الإسراف والقتر ﴿ قَوَامًا ﴾ وسطاً وعدلاً سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي به سواء لاستوائهما، وقرئ بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص، وهو خبر ثان، أو حال مؤكدة، أو هو الخبر وبين ذلك لغو، وقد جوز أن يكون اسم كان على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن ولا يخفى ضعفه فإنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بشيء عن نفسه"[1]

ويقول وهبة الزحيلي: "أي والذين إذا أنفقوا على أنفسهم أو عيالهم ليسوا بالمبذّرين في إنفاقهم فوق الحاجة ولا بالبخلاء، فيقصرون في حقهم وفيما يجب عليهم، بل ينفقون عدلاً وسطاً خياراً بقدر الحاجة وخير الأمور أوسطها، أي الوسطية في الاعتدال وترك الإسراف والتقتير، فالتبذير سبب في ضياع مال الشخص ومال الأمة، ومن المعلوم أنه لا سرف في الخير، ولا خير في السرف، قال الحسن البصري رضي الله عنه: "ليس في النفقة في سبيل الله عز وجل سرف"[2]

ويقول النحاس: "من أنفق في غير طاعة الله عز وجل فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الاقتار، ومن أنفق في طاعة الله عز وجل فهو القوام"[3]

---
[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 229)
[2] التفسير المنير (10/ 119)
[3] إعراب القرآن للنحاس (3/ 116)





ويقول الصابوني في تفسيره: "ليسوا مبذرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب والملابس، ولا مقصرين ومضيقين بحيث يصبحون بخلاء، ولكن كان إنفاقهم وسطاً معتدلاً بين الإسراف والتقتير"[1]

ويقول صاحب الظلال: "وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات؛ ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال، والمسلم مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة ليس حراً في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي، والإسلام هو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد، فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان وكان بين ذلك قواماً"[2]

قال السعدي: "والذين إذا أنفقوا النفقات الواجبة والمستحبة لم يسرفوا بأن يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير، ولم يقتروا فيدخلوا في باب البخل والشح، وإهمال الحقوق الواجبة وكان إنفاقهم بين ذلك بين الإسراف والتقتير قواماً يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم"[3]

قال الطنطاوي: "أي أن من صفاتهم أنهم ملتزمون في إنفاقهم التوسط، فلا هم مسرفون ومتجاوزون للحدود التي شرعها الله ﷻ ولا هم بخلاء في نفقتهم إلى درجة التقتير والتضييق، وإنما هم خيار عدول يعرفون أن خير الأمور أوسطها.

---

[1] صفوة التفاسير للصابوني (2/ 339)
[2] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2579- 2579)
[3] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 586.





واسم الإشارة في قوله ﷻ: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ يعود إلى المذكور من الإسراف والتقتير، والقوام: الشيء بين الشيئين، وقوام الرجل: قامته وحسن طوله وهيئته، وهو: خبر لكان، واسمها: مقدر فيها.

أي: وكان إنفاقهم ﴿ قَوَامًا ﴾ أي وسطاً بين الإسراف والتقتير والتبذير والبخل، فهم في حياتهم نموذج يقتدى به في القصد والاعتدال والتوازن؛ وذلك لأن الإسراف والتقتير كلاهما مفسد لحياة الأفراد والجماعات والأمم، لأن الإسراف تضييع للمال في غير محله، والتقتير إمساك له عن وجوهه المشروعة، أما الوسط والاعتدال في إنفاق المال، فهو سمة من سمات العقلاء الذين على أكتافهم تنهض الأمم، وتسعد الأفراد والجماعات"[1]

يقول ابن عيثمين: "النفقات الواجبة والمستحبة، لم يسرفوا بأن يزيدوا على الحد، فيدخلوا في قسم التبذير، وإهمال الحقوق الواجبة، ولم يقتروا فيدخلوا في باب البخل والشح، فإنفاقهم بين الإسراف والتقتير قواماً، يبذلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار، وهذا عدلهم واقتصادهم"[2]

قال ابن كثير: "هم ليسوا بمبذِّرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقصِّرون في حقِّهم ولا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا"[3]

---

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 218 – 219)
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 25)
[3] تفسير ابن كثير (3/ 314)





قال الشنقيطي: "فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير، وبين البخل والاقتصاد، فالجود غير التبذير، والاقتصاد غير البخل، فالمنع في محل الإعطاء مذموم، وقد نهى الله ﷻ عنه نبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الإسراء: ٢٩، والإعطاء في محل المنع مذموم أيضا وقد نهى الله ﷻ عنه نبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴿٢٩﴾ ﴾ الإسراء: ٢٩ "[1]

قال البقاعي: "ولما ذكر أفعالهم وأقوالهم فيما بينهم وبين الخلق وقدمه، والخالق وأخره، لأن وجوبه يكون بعد ذلك، ذكر أحوالهم في أموالهم، نظراً إلى قول الكفرة: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ وهداية إلى طريق الغنى؛ لأنه ما عال من اقتصد، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ ﴾ أي للخلق أو الخالق في واجب أو مستحب ﴿ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ أي يجاوزوا الحد في النفقة بالتبذير، فيضيعوا الأموال في غير حقها فيكونوا إخوان الشياطين الذين هم من النار ففعلهم فعلها ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ أي يضيقوا فيضيعوا الحقوق، ثم بين العدل بقوله: ﴿ وَكَانَ ﴾ أي إنفاقهم ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي الفعل الذي يجب إبعاده، ولما علم أن ما بين الطرفين المذمومين يكون عدلاً، صرح به في قوله: ﴿ قَوَامًا ﴾ أي عدلاً سواء بين الخلقين المذمومين: الإفراط والتفريط، تخلقاً بصفة قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ الشورى: ٢٧، وهذه صفة أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاماً

[1] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (1/ 11)





للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة، بل كانوا يأكلون ما يسد الجوعة، ويعين على العبادة، ويلبسون ما يستر العورة، ويكن من الحر والقر"[1]

"تخبر هذه الآية عن طريقتهم في إنفاق أموالهم، فهم في النفقة لم يسرفوا ويبذروا، ولم يبخلوا ويقتروا، وإنما تكون نفقتهم قواماً وسطاً، وقصداً معتدلاً، فلا يبخلون عن واجب، ولا يقصرون في مطلوب، ولا ينفقون فيما لا خير فيه"[2]

ومن فوائد الإنفاق: أنه من كمال الإيمان وحسن الإسلام، ودليل حسن الظن بالله ﷻ والثقة به، وأداء شكر نعمة الله ﷻ بالمال إذ إن المالك على الحقيقة هو الله ﷻ، كما أنه سبب نيل حب الله ﷻ، وأنه طريق موصل إلى الجنة، وتزكية للنفس وتطهيرها بإخراج الشح منها، وهو دليل الطبع السليم ومدعاة لنصرة الله ﷻ"[3]

ومن فوائد التوسط: السلامة من الزيادة والنقصان، والأمن من الفقر والحاجة، وحصول البركة والنماء، ودليل كمال العقل وتمام الرشد، وضمان النجاة حتى الممات، وضمان الاستمرار في الخير، وهو صفة مميزة للأمة، وفيه تأسّ بالرسول ﷺ وبالأصحاب الكرام رضي الله عنهم، وفيه أمان من الملال، وفيه مخالفة لطريق الشيطان، والتوسط هو الاعتدال والقصد وفي ذلك الخير كله، وهو مدار الفضائل في كثير من الأمور"[4]

ومن مضار البخل: أنه لا يجتمع مع الإيمان، وأصل لنقائص كثيرة، ويدعو إلى خصال ذميمة، والبخيل مكروه من الله ﷻ ومبغوض من الناس، ودليل على سوء الظن بالله ﷻ، ودليل على قلة العقل وسوء التدبير، ومهلك للإنسان ومدمر للأخلاق، ويضع

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 424).
[2] التفسير المنهجي (7/ 60)
[3] نظرة النعيم (3/ 628)
[4] نظرة النعيم (4/ 1366)





السيّد ويؤخر السّابق، وليس من صفات الأنبياء والأصفياء ولا السادة الشرفاء، والبخيل محروم في الدنيا مؤاخذ في الآخرة"[1]

[1] نظرة النعيم (9/ 4046)





الصفة السادسة

البعد عن الشرك والقتل والزنى

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ الفرقان: ٦٨ - ٧١

قال ابن عاشور: "هذا قسم آخر من صفات عباد الرحمن، وهو قسم التخلي عن المفاسد التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين فتنزه عباد الرحمن عنها بسبب إيمانهم، وذكر هنا تنزههم عن الشرك وقتل النفس والزنا، وهذه القبائح الثلاث كانت غالبة على المشركين، ووصف النفس ب التي حرم الله ﷻ بيان لحرمة النفس التي تقررت من عهد آدم عليه السلام فيما حكى الله ﷻ من محاورة ولدي آدم بقوله: ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ المائدة: ٢٧ الآيات، فتقرر تحريم قتل النفس من أقدم أزمان البشر ولم يجهله أحد من ذرية آدم عليه السلام، فذلك معنى وصف النفس بالموصول في قوله ﴿ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ وكان قتل النفس متفشياً في العرب بالعداوات، والغارات، وبالوأد في كثير من القبائل





بناتهم، وبالقتل لفرط الغيرة، وقوله ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ المراد به يومئذ: قتل قاتل أحدهم، وهو تهيئة لمشروعية الجهاد عقب مدة نزول هذه السورة، ولم يكن بيد المسلمين يومئذ سلطان لإقامة القصاص والحدود، ومضى الكلام على الزنا في سورة سبحان، وقد جمع التخلي عن هذه الجرائم الثلاث في صلة موصول واحد ولم يكرر اسم الموصول كما كرر في ذكر خصال تحليهم، للإشارة إلى أنهم لما أقلعوا عن الشرك ولم يدعوا مع الله ﷻ إلها آخر فقد أقلعوا عن أشد القبائح لصوقاً بالشرك وذلك قتل النفس والزنا، فجعل ذلك شبيه خصلة واحدة، وجعل في صلة موصول واحد، وقد يكون تكرير (لا) مجزئاً عن إعادة اسم الموصول وكافياً في الدلالة على أن كل خصلة من هذه الخصال موجبة لمضاعفة العذاب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أكبر ؟ قال: "أن تدعو لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خيفة أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك، فأنزل الله ﷻ تصديقها ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾"[1]

وقد علمت أن هذه الآيات الثلاث إلى قوله: ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ قيل: نزلت بالمدينة، والإشارة بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى ما ذكر من الكبائر على تأويله بالمذكور كما تقدم في نظيره آنفا، والمتبادر من الإشارة أنها إلى المجموع، أي: من يفعل مجموع الثلاث ويعلم أن جزاء من يفعل بعضها ويترك بعضاً عدا الإشراك دون جزاء من يفعل جميعها، وأن البعض أيضاً مراتب، وليس المراد من يفعل كل واحدة مما ذكر يلق أثاماً؛

[1] رواه البخاري (9/ 155)، رواه مسلم (1/ 91).



لأن لقي الآثام بين هنا بمضاعفة العذاب والخلود فيه، وقد نهضت أدلة متظافرة من الكتاب والسنة على أن ما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود، مما يقتضي تأويل ظواهر الآية، ويجوز أن تكون مضاعفة العذاب مستعملة في معنى قوته، أي: يعذب عذاباً شديداً وليست لتكرير عذاب مقدر، والأثام بفتح الهمزة جزاء الإثم على زنة الوبال والنكال، وهو أشد من الإثم، أي يجازى على ذلك سوءاً ؛ لأنها آثام.

وجملة ﴿ يُضَـٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَـذَابُ ﴾ بدل اشتمال من ﴿ يَلۡقَ أَثَـامًا ﴾ ، وإبدال الفعل من الفعل إبدال جملة، فإن كان في الجملة فعل قابل للإعراب ظهر إعراب المحل في ذلك الفعل؛ لأنه عماد الجملة، وجعل الجزاء مضاعفة العذاب والخلود، فأما مضاعفة العذاب فهي أن يعذب على كل جرم مما ذكر عذاباً مناسباً، ولا يكتفى بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم وهو الشرك، تنبيها على أن الشرك لا ينجي صاحبه من تبعة ما يقترفه من الجرائم والمفاسد؛ وذلك لأن دعوة الإسلام للناس جاءت بالإقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلها، وهذا معنى قول من قال من العلماء بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة يعنون خطاب المؤاخذة على ما نهوا عن ارتكابه، وليس المراد أنهم يطلب منهم العمل إذ لا تقبل منهم الصالحات بدون الإيمان، ولذلك رام بعض أهل الأصول تخصيص الخلاف بخطاب التكليف لا الإتلاف والجنايات وخطاب الوضع كله، وأما الخلود في العذاب فقد اقتضاه الإشراك، وقوله ﷻ:

﴿ مُهَـانًا ﴾ حال قصد منها تشنيع حالهم في الآخرة، أي: يعذب ويهان إهانة زائدة على إهانة التعذيب بأن يشتم ويحقر، والاستثناء من العموم الذي أفادته ﴿ وَمَن ﴾ الشرطية في قوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ والتقدير: إلا من تاب فلا يضاعف له



العذاب ولا يخلد فيه، وهذا تطمين لنفوس فريق من المؤمنين الذين قد كانوا تلبسوا بخصال أهل الشرك ثم تابوا عنها بسبب توبتهم من الشرك، وإلا فليس في دعوتهم مع الله ﷻ إلهاً آخر بعد العنوان عنهم بأنهم عباد الرحمن ثناء زائد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾"[1]، والمعنى: أنه يعفى عنه من عذاب الذنوب التي تاب منها، ولا يخطر بالبال أنه يعذب عذاباً غير مضاعف وغير مخلد فيه؛ لأن ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربي بل الأصل في ارتفاع الشيء المقيد أن يقصد منه رفعه بأسره لا رفع قيوده، إلا بقرينة.

والتوبة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب، وإذ كان فيما سبق ذكر الشرك فالتوبة هنا التلبس بالإيمان، والإيمان بعد الكفر يوجب عدم المؤاخذة كما اقترفه المشرك في مدة شركه كما في الحديث الإسلام يجب ما قبله، ولذلك فعطف ﴿ وَءَامَنَ ﴾ على ﴿ مَن تَابَ ﴾ للتنويه بالإيمان، وليبني عليه قوله ﷻ: ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ وهو شرائع الإسلام تحريضاً على الصالحات وإيماء إلى أنها لا يعتد بها إلا مع الإيمان كما قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴿١٧﴾ ﴾

[1] السنن الكبرى للنسائي (10/ 239).



البلد: ١٧، وقال في عكسه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴿٣٩﴾ ﴾ النور: ٣٩

وقتل النفس الواقع في مدة الشرك يجبه إيمان القاتل لأجل مزية الإيمان، والإسلام يجب ما قبله بلا خلاف، وإنما الخلاف الواقع بين السلف في صحة توبة القاتل إنما هو في المؤمن القاتل مؤمناً متعمداً، ولما كان مما تشمله هذه الآية؛ لأن سياقها في الثناء على المؤمن فقد دلت الآية على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من الذنوب المعدودة ومنها قتل النفس بدون حق وهو المعروف من عمومات الكتاب والسنة، وقد تقدم ذلك مفصلاً في سورة النساء عند قوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾ ﴾ النساء: ٩٣، وفرع على الاستثناء الذين تابوا وآمنوا وعملوا عملاً صالحاً أنهم يبدل الله ﷻ سيئاتهم حسنات، وهو كلام مسوق لبيان فضل التوبة المذكورة التي هي الإيمان بعد الشرك؛ لأن ﴿ مَن تَابَ ﴾ مستثنى من ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ فتعين أن السيئات المضافة إليهم هي السيئات المعروفة، أي التي تقدم ذكرها الواقعة منهم في زمن شركهم.

والتبديل: جعل شيء بدلاً عن شيء آخر، وتقدم عند قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ ﴾ الأعراف: ٩٥، أي: يجعل الله ﷻ لهم حسنات كثيرة عوضاً عن تلك السيئات التي اقترفوها قبل التوبة وهذا التبديل جاء مجملاً وهو تبديل يكون

له أثر في الآخرة بأن يعوضهم عن جزاء السيئات ثواب حسنات أضداد تلك السيئات، وهذا لفضل الإيمان بالنسبة للشرك ولفضل التوبة بالنسبة للآثام الصادرة من المسلمين، وبه يظهر موقع اسم الإشارة في قوله ﷻ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المفيد التنبيه على أنهم أحرياء بما أخبر عنهم به بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة، أي: فأولئك التائبون المؤمنون العاملون الصالحات في الإيمان يبدل الله ﷻ عقاب سيئاتهم التي اقترفوها من الشرك والقتل والزنا بثواب، ولم تتعرض الآية لمقدار الثواب وهو موكول إلى فضل الله ﷻ، ولذلك عقب هذا بقوله ﷻ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ المقتضي أنه عظيم المغفرة، وإذا وقع الإخبار عن شيء أو توصيف له أو حالة منه بمرادف لما سبق مثله في المعنى دون زيادة تعين أن يكون الخبر الثاني مستعملاً في شيء من لوازم معنى الإخبار يبينه المقام، وقول النبي ﷺ: "من رآني في المنام فقد رآني"[1]، فقوله ﷻ هنا: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ وقع الإخبار عن التائب بأنه تائب؛ إذ المتاب مصدر ميمي بمعنى التوبة فيتعين أن يصرف إلى معنى مفيد، فيجوز أن يكون المقصود هو قوله: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فيكون كناية عن عظيم ثوابه، ويجوز أن يكون المقصود ما في المضارع من الدلالة على التجدد، أي: فإنه يستمر على توبته ولا يرتد على عقبيه فيكون وعداً من الله ﷻ أن يثبته على القول الثابت إذا كان قد تاب وأيد توبته بالعمل الصالح، ويجوز أن يكون المقصود ما للمفعول المطلق من معنى التأكيد، أي: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

---

[1] رواه البخاري (9/ 33)، رواه مسلم (4/ 1775).





﴾ فإن توبته هي التوبة الكاملة الخالصة لله ﷻ على حد قول النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"[1]، فيكون كقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿٨﴾ ﴾ التحريم: ٨ وذكر المفسرون احتمالات أخرى بعيدة، والتوكيد بـ (إن) على التقادير كلها لتحقيق مضمون الخبر"[2]

"**البعد عن الشرك:** وهو عبادة أحد مع الله ﷻ أو عبادة غير الله ﷻ، وهو أكبر الجرائم.

الابتعاد عن القتل العمد: وهو إزهاق النفس الإنسانية عمداً دون حق وهو اعتداء على صنع الله ﷻ، واهدار لحق الحياة الذي هو أقدس حقوق الإنسان، أما القتل بحق كالقتل بسبب الردة أو زنى المحصن أو القصاص فجائز من قبل الحاكم.

اجتناب الزنى: وهو انتهاك حرمة العرض وهو جريمة خطيرة تؤدي إلى اختلاط الأنساب وإشاعة الأمراض، وهدم الحقوق وإثارة العداوات والأحقاد والبغضاء، ومن يرتكب هذه الجرائم العظمى الشرك والقتل والزنى يضاعف له العذاب في نار جهنم ويكون مخلداً فيها ذليلاً خاسئاً مبعداً مطروداً من رحمة الله ﷻ، ولكن إذا تاب الكافر والقاتل والزاني تقبل الله ﷻ توبته، ويبدل سيئته حسنة، إما في الدنيا على رأي، بأن يجعل الإيمان محل الشرك والإخلاص محل الشك، والإحصان مكان الفجور، وإما في الآخرة على رأي أخر فيمن غلبت حسناته على سيئاته، وقيل التبديل عبارة عن

[1] رواه البخاري (1/ 6)، رواه مسلم (3/ 1515).
[2] التحرير والتنوير (19/ 73 – 78)





الغفران، أي يغفر الله ﷻ لهم تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات، ثم أكد الله ﷻ قبول التوبة الصادقة النصوح من كل إنسان"[1]

يقول الزمخشري: "حرم" أي حرمها، والمعنى: حرم قتلها إلا بالحق متعلق بهذا القتل المحذوف، أو بلا يقتلون، ونفي هذه المقبحات العظام على الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين، للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين برأهم الله ﷻ وطهرهم مما أنتم عليه، والقتل بغير الحق: يدخل فيه الوأد وغيره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، قلت: ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك، فأنزل الله ﷻ تصديقه: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴾"[2]، والآثام: جزاء الإثم، بوزن الوبال والنكال ومعناهما، وقيل هو الإثم ومعناه: يلق جزاء أثام، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: "أياماً"، أي شدائد، يقال: يوم ذو أيام: لليوم العصيب، ﴿ يُضَٰعَفۡ ﴾ بدل من ﴿ يَلۡقَ ﴾ ؛ لأنهما في معنى واحد؛ كقوله (من الطويل): وقرئ: "يضعف"، و"نضعف له العذاب"، بالنون ونصب العذاب، وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال، وكذلك ﴿ وَيَخۡلُدۡ ﴾ وقرئ: "ويخلد"، على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً، من الإخلاد والتخليد، وقرئ: "وتخلد"، بالتاء على الالتفات، ﴿ يُبَدِّلُ ﴾ مخفف ومثقل، وكذلك ﴿ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ فإن قلت:

---

[1] التفسير المنير للزحيلي (10/ 126- 127)

[2] رواه البخاري (9/ 155)، رواه مسلم (1/ 91).



ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات؟ قلت: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه، وإبدال السيئات حسنات: أنه يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات: الإيمان، والطاعة، والتقوى، وقيل: يبدلهم بالشرك إيماناً ، وبقتل المسلمين: قتل المشركين، وبالزنا: عفة وإحصاناً يريد، ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله ﷻ ﴿ مَتَابًا ﴾ مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب، أو فإنه تائب متاباً إلى الله ﷻ الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين، وفي كلام بعض العرب: "لله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد، والظمآن الوارد، والعقيم الوالد، أو: فإنه يرجع إلى الله ﷻ وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وأي مرجع"[1]

قال القاسمي: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي: لا يشركون بعبادة ربهم ﷻ أحداً، فالدعاء بمعنى العبادة: ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي: حرمها بمعنى حرم قتلها، ومنه الوأد وغيره، ﴿ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي: المزيل لحرمتها وعصمتها، ﴿ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما ذكر من هذه القبائح العظام: ﴿ يَلۡقَ أَثَامًا ﴾ أي: يجد في الآخرة جزاء إثمه، ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ أي: ذليلاً محتقراً جامعاً لعذابي الجسم والروح، ﴿ إِلَّا

[1] الكشاف للزمخشري (3/ 294 - 295).



﴿ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد: ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ يبدلهم الله ﷻ تقبيح أعمالهم في الشرك، محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك وبقتل المؤمنين، قتل المشركين، وبالزنى، عفة وإحصاناً.

وقال آخرون: يعني يبدل الله ﷻ سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم، حسنات يوم القيامة وأصل القولين، أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال إنه في الدنيا، قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة، والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة تنقلب حسنة، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها، فأما أن تنقلب حسنة فلا، فإنها لم تكن طاعة، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب ﷻ، فكيف تنقلب محبوبة مرضية؟

قالوا: وأيضاً فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، كقوله ﷻ: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣ ﴾ آل عمران: ١٩٣، وقوله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥ ﴾ الشورى: ٢٥، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ٥٣ ﴾ الزمر: ٥٣، والقرآن مملوء من ذلك، وعن قتادة عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رضي الله عنهما: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال: سمعته يقول: "يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه،





فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: رب! أعرف قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على الله ﷻ"[1]، فهذا الحديث المتفق عليه، والذي تضمن العناية بهذا العبد، إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتها له يوم القيامة، ولم يقل له: وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة، فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله سبحانه وتعالى عنها.

وقد قال الله سبحانه وتعالى في حق الصادقين: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الزمر: ٣٥، فهؤلاء خيار الخلق، وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ويجزيهم بأحسن ما يعملون، وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها، وأما السيئات، أن تلغى ويبطل أثرها.

قالوا أيضاً: فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات في حق التائب، لكان أحسن حالاً من الذي لم يرتكب منها شيئاً، وأكثر حسنات منه؛ لأنه إذا أساء شاركه في حسناته التي فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات، ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه، وكيف يكون صاحب السيئات أرجح من لا سيئة له؟ قالوا أيضاً: فكما أن العبد، إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها، فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها، بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها، فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها، فإنها لا تنقلب حسنات فإن قلتم: وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته، لم ننازعكم في هذا، وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة

---

[1] رواه مسلم (4/ 2120).





تقتضي ثواباً وجودياً، واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة، بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة، وهذا إنما يكون في السيئة المحققة، وهي التي قد فعلت ووقعت، فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة، قالوا: ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ فأضاف السيئات إليهم، لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم؛ لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرد فضل الله عز وجل وكرمه قالوا أيضاً: فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله عز وجل لا فعلهم فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم، فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴿٥٩﴾ ﴾ البقرة: ٥٩، وأما ما كان من غير الفاعل، فإنه يجعله من تبديله هو، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ ﴿١٦﴾ ﴾ سبأ: ١٦، فلما أخبر سبحانه وتعالى أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات، دل على أنه شيء فعله هو سبحانه وتعالى بسيئاتهم، لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم، وإن كان سببه منهم وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح ، قالوا: ويدل عليه ما رواه أبي ذر رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له: فإن لك





مكان كل سيئة حسنة"[1]، قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنهم إنما سموا أبدالاً؛ لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة، بالأعمال الحسنة، فبدل الله ﷻ سيئاتهم التي عملوا حسنات، قالوا أيضاً: فالجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة، بدلها الله ﷻ من صحف الحفظة، حسنات جزاء وفاقاً، ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أي: ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح، فإنه بذلك تائب إلى الله ﷻ متاباً مرضياً عنده، مكفراً للخطايا، محصلاً للثواب، والآية صريحة في أن العمل الصالح والمثابرة عليه قولاً وفعلاً، شرط في صحة التوبة وقبولها وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح، فليتفطن لمعنى هذا الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان، أو تخشع بأركان، ولا عمل صالح له يرضي الرحمن ﷻ"[2]

قال الرازي: "اعلم أنه ﷻ ذكر أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب، ثم استثنى من جملتهم التائب، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: أنه ﷻ قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الأمور الخفيفة، فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الأمور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا، أليس أنه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى؟ الجواب: أن الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكاً بالشرك تديناً، ومقدماً على قتل الموءودة تديناً، وعلى الزنا تديناً، فبين ﷻ أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن، حتى يضاف

---

[1] رواه مسلم (1/ 177).
[2] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 438 – 444).





إلى ذلك كونه مجانباً لهذه الكبائر، وأجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال: المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار، كأنه قال: وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله ﷻ إلها آخر وأنتم تدعون، ولا يقتلون النفس التي حرم الله ﷻ إلا بالحق، وأنتم تقتلون الموءودة، ولا يزنون وأنتم تزنون.

السؤال الثاني: ما معنى قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، ومعلوم أنه من يحل قتله لا يدخل في النفس المحرمة، فكيف يصح هذا الاستثناء؟ الجواب: المقتضي لحرمة القتل قائم أبداً، وجواز القتل إنما ثبت بالمعارض، فقوله ﷻ: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى المقتضي، وقوله ﷻ: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى المعارض.

السؤال الثالث: بأي سبب يحل القتل؟ الجواب: بالردة وبالزنا بعد الإحصان، وبالقتل قوداً على ما في الحديث، وقيل: وبالمحاربة وبالبينة، وإن لم يكن لما شهدت به حقيقة.

السؤال الرابع: منهم من فسر قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالردة، فهل يصح ذلك؟ الجواب: لفظ القتل عام، فيتناول الكل.

السؤال الخامس: ما الأثام؟ الجواب: فيه وجوه:

أحدها: أن الأثام جزاء الإثم، بوزن الوبال والنكال.

وثانيها: وهو قول أبي مسلم: أن الأثام والإثم واحد، والمراد ههنا جزاء الأثام، فأطلق اسم الشيء على جزائه.





وثالثها: قال الحسن: الأثام اسم من أسماء جهنم، وقال مجاهد: ﴿ أَثَامًا ﴾ واد في جهنم، أما قوله ﷻ: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ يُضَٰعَفۡ ﴾ بدل من ﴿ يَلۡقَ ﴾ لأنهما في معنى واحد.

المسألة الثانية: سبب تضعيف العذاب أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع.

المسألة الثالثة: قال القاضي: بين الله ﷻ أن المضاعفة والزيادة يكون حالهما في الدوام كحال الأصل، فقوله ﷻ: ﴿ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ ﴾ أي: ويخلد في ذلك التضعيف، ثم إن ذلك التضعيف إنما حصل بسبب العقاب على المعاصي، فوجب أن يكون عقاب هذه المعاصي في حق الكافر دائماً، وإذا كان كذلك وجب أن يكون في حق المؤمن كذلك؛ لأن حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره أو منفرداً، والجواب: لم لا يجوز أن يكون للإتيان بالشيء مع غيره أثر في مزيد القبح، ألا ترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما في نفسه حسناً، وإن كان الجمع بينهما قبيحاً، وقد يكون كل واحد منهما قبيحاً، ويكون الجمع بينهما أقبح، فكذا ههنا.

المسألة الرابعة: قوله ﷻ: ﴿ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ إشارة إلى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالإذلال والإهانة، كما أن الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم.





وأما قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: دلت الآية على أن التوبة مقبولة، والاستثناء لا يدل على ذلك؛ لأنه أثبت أنه يضاعف له العذاب ضعفين، فيكفي لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين، وإنما الدال عليه قوله ﷻ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾.

المسألة الثانية: نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "توبة القاتل غير مقبولة، وزعم أن هذه الآية منسوخة بقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ النساء: ٩٣، وقالوا: نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة.

المسألة الثالثة: فإن قيل: العمل الصالح يدخل فيه التوبة والإيمان، فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوا، قلنا: أفردهما بالذكر لعلو شأنهما، ولما كان لا بد معهما من سائر الأعمال لا جرم ذكر عقيبهما العمل الصالح.

المسألة الرابعة: اختلفوا في المراد بقوله ﷻ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ على وجوه:

أحدها: قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: إن التبديل إنما يكون في الدنيا، فيبدل الله ﷻ قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك



إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً، فكأنه ﷻ يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب.

وثانيها: قال الزجاج: السيئة بعينها لا تصير حسنة، ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة، والكافر يحبط الله ﷻ عمله ويثبت عليه السيئات.

وثالثها: قال قوم: إن الله ﷻ يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية، وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول، ويحتجون بما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات"[1]، وعلى هذا التبديل في الآخرة.

ورابعها: قال القفال والقاضي: أنه ﷻ يبدل العقاب بالثواب، فذكرهما وأراد ما يستحق بهما، وإذا حمل على ذلك كانت الإضافة إلى الله ﷻ حقيقة؛ لأن الإثابة لا تكون إلا من الله ﷻ، وأما قوله ﷻ: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ ففيه سؤالان:

السؤال الأول: ما فائدة هذا التكرير؟ الجواب: من وجهين:

الأول: أن هذا ليس بتكرير؛ لأن الأول لما كان في تلك الخصال بين ﷻ أن جميع الذنوب بمنزلتها في صحة التوبة منها.

الثاني: أن التوبة الأولى رجوع عن الشرك والمعاصي، والتوبة الثانية رجوع إلى الله ﷻ للجزاء والمكافأة؛ كقوله ﷻ: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠ ﴾ الرعد: ٣٠، أي مرجعي.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 281).



السؤال الثاني: هل تكون التوبة إلا إلى الله ﷻ، فما فائدة قوله ﷻ: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾؟ الجواب: من وجوه:

الأول: ما تقدم من أن التوبة الأولى الرجوع عن المعصية، والثانية الرجوع إلى حكم الله ﷻ وثوابه.

الثاني: معناه أن من تاب إلى الله ﷻ فقد أتى بتوبة مرضية لله ﷻ مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم.

الثالث: قوله ﷻ: ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ يرجع إلى الماضي، فإنه ﷻ ذكر أن من أتى بهذه التوبة في الماضي على سبيل الإخلاص فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة في المستقبل، وهذا من أعظم البشارات"[1]

ويقول وهبة الزحيلي أيضاً: "أي والذين لا يعبدون مع الله ﷻ إلهاً آخر، فيجعلون مع الله ﷻ في عبادتهم شريكاً، وإنما يخلصون له الطاعة والعبادة، ولا يقتلون النفس عمداً إلا بحق، كالكفر بعد الإيمان، والزنى بعد الإحصان، وقتل النفس بغير حق، ويكون القتل بحكم الحاكم أو القاضي لا برأي شخصي، ولا يزنون، وهذه أعظم الجرائم: الشرك، والقتل العمد العدوان، والزنى، والجريمة الأولى عدوان على الله ﷻ، والثانية عدوان على الإنسانية، والثالثة عدوان على الحقوق وانتهاك للأعراض، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ ﴾ الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩

[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 483 – 485).





أي ومن يفعل واحدة من تلك الجرائم الثلاث، يلقَ في الآخرة عقاباً شديداً وجزاء إثمه وذنبه الذي ارتكبه، بل يضاعف له العذاب ضعفين بسبب انضمام المعصية إلى الكفر، ويخلد في نار جهنم أبداً مع الإهانة والإذلال والاحتقار، وذلك عذابان حسي ومعنوي.

ثم فتح الله ﷻ باب التوبة للترغيب في الإصلاح والعودة إلى الاستقامة فقال:"﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الفرقان: ٧٠

أي لكن من تاب في الدنيا إلى الله ﷻ عن جميع ذلك بأن أقلع عن الذنب، وندم على المعصية، وكان مؤمناً مصدقاً بالله ﷻ ورسله واليوم الآخر، وعمل الصالحات، فأولئك يمحو الله ﷻ عنهم بالتوبة السيئات، ويبدلهم مكانها حسنات بإثبات لواحق الطاعة، أو تنقلب السيئات الماضية بالتوبة نفسها حسنات، قال ﷻ: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ الفرقان: ٧١

أي ومن تاب عن معاصيه، وعمل الأعمال الصالحة، فإن الله ﷻ يقبل توبته، لأنه رجع إلى الله ﷻ رجوعاً مرضياً عند الله ﷻ، فيمحو عنه العقاب، ويجزل له الثواب. وهذا تعميم لقبول التوبة عن جميع المعاصي، بعد تخصيص قبولها ممن تاب عن كبائر المعاصي السابقة التي هي الشرك والقتل العمد والزنى"[1]

ويقول صاحب الظلال: "توحيد الله ﷻ أساس هذه العقيدة، ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة في الاعتقاد، والغموض والالتواء والتعقيد، الذي لا يقوم

[1] التفسير المنير للزحيلي (10/ 120- 122)





على أساسه نظام صالح للحياة، والتحرج من قتل النفس إلا بالحق مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التي تحترم فيها الحياة الإنسانية ويقام لها وزن، والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التي يشعر فيها الإنسان بارتفاعه عن الحس الحيواني الغليظ، ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفاً أسمى من إرواء سعار اللحم والدم، ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ﷻ، والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان، من أجل ذلك ذكرها الله ﷻ في سمات عباد الرحمن، أرفع الخلق عند الله ﷻ وأكرمهم، وعقب عليها بالتهديد الشديد، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ أي عذاباً وفسر هذا العذاب بما بعده ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ فليس هو العذاب المضاعف وحده وإنما هي المهانة كذلك، وهي أشد وأنكى، ثم يفتح باب التوبة لمن أرد أن ينجو من هذا المصير المسيء بالتوبة والإيمان الصحيح والعمل الصالح ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ ويعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم الجديدة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الفرقان: ٧٠

وهو فيض من عطاء الله ﷻ لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وثاب إلى حمى الله ﷻ ولاذ به بعد الشرود والمتاهة، وباب التوبة دائماً



مفتوح، يدخل منه كل من استيقظ ضميره، وأرد العودة والمآب، لا يصد عنه قاصد ولا يغلق في وجه لاجئ أيا كان وأيا ما ارتكب من الآثام"[1]

ويقول الصابوني: "أي لا يعبدون مع الله ﷻ إلهاً آخر بل يوحدونه مخلصين له الدين، ولا يقتلون النفس التي حرم الله ﷻ قتلها إلا بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو القتل قصاصاً، ولا يرتكبون جريمة الزنى التي هي من أفحش الجرائم، ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة، ويضاعف عقابه ويغلظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي، ويخلد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً أبد الأبدين إلا من تاب في الدنيا التوبة النصوح وأحسن عمله، فيكرمهم الله ﷻ في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات، فالله ﷻ واسع المغفرة كثير الرحمة، ومن تاب عن المعاصي وأصلح سيرته فإن الله ﷻ يتقبل توبته ويكون مرضياً عند الله ﷻ"[2]

يقول القرطبي: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان، وقتلهم النفس بوأد البنات، وغير ذلك من الظلم والاغتيال، والغارات، ومن الزنى الذي كان عندهم مباحاً، وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها من أهل المعاني: لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم؛ لأنهم أعلى وأشرف، فقال: معناها لا يدعون الهوى إلهاً، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصي فيكون قتلاً لها، ومعنى ﴿ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي إلا بسكين

---

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2579- 2580)
[2] صفوة التفاسير للصابوني (2/ 339- 340)





الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحاً، بل بالضرورة فيكون كالنكاح"[1]

قال ابن كثير: "وقوله ﷻ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الصالحات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله ﷻ بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات.

والثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار"[2]

قال البيضاوي: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي حرمها بمعنى حرم قتلها، ﴿ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ متعلق القتل المحذوف، أو بلا يقتلون ولا يزنون نفى عنهم أمهات المعاصي بعد ما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكور موعود للجامع بين ذلك، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال:﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾ جزاء إثم أو إثماً بإضمار الجزاء، ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم، أو يبدل ملكة المعصية في النفس

---

[1] تفسير القرطبي (13/ 75).

[2] تفسير ابن كثير (6/ 115).





بملكة الطاعة، وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات، ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ عن المعاصي بتركها والندم عليها، ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ يتلافى به ما فرط، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يرجع إلى الله ﷻ بذلك، ﴿ مَتَابًا ﴾ مرضياً عند الله ﷻ ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، أو يتوب متاباً إلى الله ﷻ الذي يحب التائبين ويصطنع بهم أو فإنه يرجع إلى الله ﷻ وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وهو تعميم بعد تخصيص"[1]

قال الشوكاني: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي فقال: والذين لا يدعون مع الله ﷻ رباً من الأرباب، والمعنى: لا يشركون به شيئاً، بل يوحدونه ويخلصون له العبادة والدعوة، ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي: حرم قتلها ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بما يحق أن تقتل به النفوس، من كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ أي: يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح، ولا ملك يمين، ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أي: شيئاً مما ذكر يلق في الآخرة أثاماً والآثام في كلام العرب: العقاب"[2]

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 130- 131).
[2] فتح القدير للشوكاني (4/ 102).





يقول أبو السعود: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ شروع في بيان اجتنابهم عن المعاصي بعد بيان إتيانهم بالطاعات، وذكر نفي الإسراف والقتر لتحقيق معنى الاقتصاد، والتصريح بوصفهم بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلكه، وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم، أي: لا يعبدون معه ﷻ إلهاً آخر، ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي: حرمها بمعنى: حرم قتلها فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة في التحريم، ﴿ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي: لا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها، أو لا يقتلون قتلاً ما إلا قتلاً ملتبساً بالحق، أو لا يقتلونها في حال من الأحوال إلا حال كونهم ملتبسين بالحق، ﴿ وَلَا يَزۡنُونَ ﴾ أي: الذين لا يفعلون شيئاً من هذه العظائم القبيحة التي جمعهن الكفرة حيث كانوا مع إشراكهم به ﷻ مداومين على قتل النفوس المحرمة التي من جملتها الموءودة ، مكبين على الزنا لا يرعون عنه أصلاً، ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما ذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين ﴿ يَلۡقَ ﴾ في الآخرة، وقرئ : ﴿ يلَق ﴾ بالتشديد مجزوماً ﴿ أَثَامًا ﴾ وهو جزاء الإثم كالوبال والنكال وزنا ومعنى، وقيل: هو الإثم، أي: يلق جزاء الإثم والتنوين على التقديرين للتفخيم، ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ بدل من ﴿ يَلۡقَ ﴾ لاتحادهما في المعنى، وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحالية، وكذا ما عطف عليه، ﴿ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ ﴾ أي: في ذلك العذاب





المضاعف ﴿ مُهَانًا ﴾ ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني، وقرئ: "يخلد" و "يخلد" مبنياً للمفعول من الإخلاد والتخليد، وقرئ: "تخلد" بالتاء على الالتفات المنبئ عن شدة الغضب ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر، كما يفصح عنه قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ وذكر الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء والتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول والجمع باعتبار معناه، كما أن الإفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه، أي: أولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم، أو يبدل بملكة المعصية ودواعيها في النفس ملكة الطاعة بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية، وقيل: بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو أن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً، وقيل: يبدلهم بالشرك إيماناً، وبقتل المسلمين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والإثبات، ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ أي: عن المعاصي بتركها بالكلية والندم عليها

﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ يتلافى به ما فرط منه أو خرج عن المعاصي، ودخل في الطاعات، فإنه بما فعل ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: يرجع إليه ﷻ ﴿ مَتَابًا ﴾ أي: متاباً عظيم الشأن مرضياً عنده ﷻ ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، أو يتوب متاباً





إلى الله ﷻ الذي يحب التوابين ويحسن إليهم، أو فإنه يرجع إليه ﷻ أو إلى ثوابه مرجعاً حسناً، وهذا تعميم بعد تخصيص"[1]

يقول السعدي: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه، ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ وهي نفس المسلم والكافر المعاهد، ﴿ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ كقتل النفس بالنفس وقتل الزاني المحصن والكافر الذي يحل قتله، ﴿ وَلَا يَزۡنُونَ ﴾ بل يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الشرك بالله ﷻ أو قتل النفس التي حرم الله ﷻ بغير حق أو الزنا فسوف ﴿ يَلۡقَ أَثَامًا ﴾ ثم فسره بقوله ﷻ: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ ﴾ أي: في العذاب ﴿ مُهَانًا ﴾ فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه وكذا لمن أشرك بالله ﷻ، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب فإنه لا يتناوله الخلود؛ لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار ولا يخلد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص ﷻ على هذه الثلاثة؛ لأنها من أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان والزنا فيه فساد الأعراض، ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال وندم على ما مضى له من فعلها وعزم عزماً جازماً أن لا يعود،

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 229 – 230).





﴿ وَءَامَنَ ﴾ بالله ﷻ إيماناً صحيحاً يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات

﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله ﷻ،

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ ﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم، ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله ﷻ الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها ليقدم على من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالها"[1]

يقول الطنطاوي: "وبعد أن بين ﷻ ما هم عليه من طاعات، أتبع ذلك ببيان اجتنابهم للمعاصي والسيئات فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي: لا يشركون مع الله ﷻ إلهاً آخر لا في عبادتهم ولا في عقائدهم، وإنما يخلصون وجوههم لله ﷻ وحده، ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي: ولا يقتلون النفس التي حرم الله ﷻ قتلها لأي سبب من الأسباب، إلا بسبب الحق المزيل

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 587.





والمهدر لعصمتها وحرمتها، ككفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير ذنب يوجب قتلها، ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ أي: ولا يرتكبون فاحشة الزنا، بأن يستحلوا فرجاً حرمه الله ﷻ عليهم، وقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ بيان لسوء عاقبة من يرتكب شيئاً من تلك الفواحش السابقة، أي: ومن يفعل ذلك الذي نهينا عنه من الإشراك والقتل والزنا، يلق عقاباً شديداً لا يقادر قدره، وقوله ﷻ:

﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ بدل من ﴿ يَلْقَ ﴾ بدل كل من كل، أي: يضاعف العذاب يوم القيامة لمن يرتكب شيئاً من ذلك، ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ أي: ويخلد في ذلك العذاب خلوداً مصحوباً بالذلة والهوان والاحتقار، ثم استثنى ﷻ التائبين من هذا العذاب المهين فقال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾، أي: يضاعف العذاب لمن يرتكب شيئاً من تلك الكبائر، ويخلد فيه مهاناً، إلا من تاب عنها توبة صادقة نصوحاً، وآمن بالله ﷻ إيماناً حقاً، وداوم على إتيان الأعمال الصالحة، فأولئك التائبون المؤمنون المواظبون على العمل الصالح يبدل الله ﷻ سيئاتهم حسنات بأن يمحو ﷻ سوابق معاصيهم بفضله وكرمه، ويثبت بدلها لواحق طاعاتهم، أو بأن يحبب إليهم الإيمان، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ويجعلهم من الراشدين، فعن أبي فروة رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: "أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة؟ فقال له ﷺ: "أأسلمت؟ قال: نعم، قال: فافعل الخيرات، واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلها، قال: "وغدراتى وفجراتي؟ قال: نعم،





فما زال يكبر حتى توارى"[1]، وقوله ﷻ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله، أي: وكان الله ﷻ واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب، ثم أشار ﷻ إلى شروط التوبة الصادقة فقال ﷻ: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾، أي: ومن تاب عن المعاصي تركاً تاماً، وداوم على العمل الصالح ليستدرك ما فاته منه، فإنه في هذه الحالة يكون قد تاب ورجع إلى الله ﷻ رجوعاً صحيحاً، مقبولاً منه ﷻ بحيث يترتب عليه محو العقاب وإثبات الثواب، وهكذا نجد رحمة الله ﷻ تحيط بالعبد من كل جوانبه، لكي تحمله على ولوج باب التوبة والطاعة، وتوصد في وجهه باب الفسوق والعصيان"[2]

ويقول ابن عثيمين: "بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه، ولا يقتلون نفس المسلم، والكافر المعاهد إلا بالحق كقتل النفس بالنفس وقتل الزاني المحصن والكافر الذي يحل قتله، ولا يزنون بل يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، ومن يفعل ذلك من الشرك بالله ﷻ أو قتل النفس التي حرم الله ﷻ بغير حق، أو الزنا، فسوف يلق أثاماً، ويضعف له في العذاب، فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله ﷻ، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناوله الخلود؛ لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص على هذه الثلاثة؛

[1] المعجم الكبير للطبراني (7/ 314).
[2] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 219 -221).





لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض، إلا من تاب عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزماً ألا يعود وآمن بالله ﷻ إيماناً صحيحاً يقتضي ترك المعاصي، وفعل الطاعات وعمل مما أمر به الشارع، وإذا قصد به وجه الله ﷻ، فأولئك تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة، وإنابة وطاعة، تبدل حسنات، والله ﷻ غفور لمن تاب، ويغفر الذنوب العظيمة رحيماً بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم، ومن تاب وعمل صلحاً فإنه يتوب إلى الله ﷻ متاباً، فَلْيَعْلَم أن توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله ﷻ، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فَلْيُخلِصْ فيها ولْيُخَلِّصْهَا من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة واتباعها على أفضل الوجوه وأجلها؛ ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه أجره بحسب كمالها"[1]

قال البقاعي: "ولما ذكر ما تحلوا به من أصول الطاعات، بما لهم من العدل والإحسان بالأفعال والأقوال، في الأبدان والأموال، أتبعه ما تخلوا عنه من أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ ﴾ رحمة لأنفسهم واستعمالاً للعدل مع الله ﷻ أي الذي اختص بصفات الكمال إلهاً وكلمة ﴿ مَعَ ﴾ وإن أفهمت أنه غير، لكن لما كانوا يتعنتون حتى أنهم يتعرضون بتعديد الأسماء كما مر في

[1] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 25- 26)





آخر سبحان والحجر، قال ﷻ قطعاً لتعنتهم: ﴿ ءَاخَرَ ﴾ أي دعاء جلياً بالعبادة له، ولا خفياً بالرياء، فيكونوا كمن أرسلت عليهم الشياطين فأزتهم أزا.

ولا نفى عنهم ما يوجب قتل أنفسهم بخسارتهم إياها، أتبعه قتل غيرهم فقال: ﴿ وَلَا يَقۡتُلُونَ ﴾ أي بما تدعو إليه الحدة النفس أي رحمة للخلق وطاعة للخالق ﷻ.

ولما كان من الأنفس ما لا حرمة له، بين المراد بقوله: ﴿ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي قتلها، أي منع منعاً عظيماً الملك الأعلى - الذي لا كفؤ له - من قتلها ﴿ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي بأن تعمل ما يبيح قتلها.

ولما ذكر القتل الجلي، أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد، فقال: ﴿ وَلَا يَزۡنُونَ ﴾ أي رحمة لما قد يحدث من ولد، إبقاء على نسبه، ورحمة للمزني بها ولأقاربها أن تنتهك حرماتهم، مع رحمته لنفسه، على أن الزنى جار أيضاً إلى القتل والفتن، وفيه التسبب لإيجاد نفس بالباطل كما أن القتل تسبب إلى إعدامها بذلك، وقد روي في الصحيح عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم - وفي رواية: أكبر - عند الله؟ قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك، فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الآية، وقد استشكل تصديق الآية للخبر من حيث إن الذي فيه قتل خاص وزنى خاص، والتقييد بكونه أكبر، والذي فيها مطلق القتل والزنى من غير تعرض لعظم، ولا إشكال لأنها نطقت بتعظيم ذلك من سبعة أوجه:



الأول: الاعتراض بين المبتدأ الذي هو "وعباد" وما عطف عليه، والخبر الذي هو أولئك يجزون على أحد الرأيين بذكر جزاء هذه الأشياء الثلاثة خاصة، وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الإعظام.

الثاني: الإشارة بأداة البعد في قوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أي الفعل العظيم القبح مع قرب المذكورات، فدل على أن البعد في رتبها.

الثالث: التعبير باللقي مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله ﷻ: ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ دون يأثم أو يلق إثماً أو جزاء إثمه.

الرابع: التقييد بالمضاعفة في قوله ﷻ مستأنفاً: ﴿ يُضَٰعَفۡ ﴾ أي بأسهل أمر له العذاب جزاء ما أتبع نفسه هواها بما فيه من الحرارة الشيطانية، هذا في قراءة ابن عامر وأبي بكر عن عاصم بالرفع وهو بدل "يلق" في قراءة الجماعة، لأنهما تؤولان إلى معنى واحد، ومضاعفة العذاب إتيان بعضه في أثر بعض بلا انقطاع كما كان يضاعف سيئته كذلك، وقراءة ابن كثير وأبي جعفر وابن عامر ويعقوب بالتشديد تفيد مطلق التعظيم للتضعيف، وقراءة الباقين بالمفاعلة تقتضيه بالنسبة إلى من يباري آخر فيه فهو أبلغ.

الخامس: التهويل بقوله ﷻ: ﴿ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ الذي هو أهول من غيره بما لا يقايس.





السادس: الإخبار بالخلود الذي هو أول درجاته أن يكون مكثاً طويلاً، فقال عاطفاً في القراءتين على يضاعف: ويخلد فيه

السابع: التصريح بقوله ﷻ: ﴿ مُهَانًا ﴾ ولعله للاحتراز عما يجوز من أن بعض عصاة هذه الأمة الذين يريد الله ﷻ تعذيبهم يعلمون أنهم ينجون ويدخلون الجنة، فتكون إقامتهم مع العلم بالمآل ليست على وجه الإهانة، فلما عظم الأمر من هذه الأوجه، علم أن كلا من هذه الذنوب كبير، وإذا كان الأعم كبيراً، كان الأخص المذكور أعظم من مطلق الأعم؛ لأنه زاد عليه بما صار به خاصاً، فثبت بهذا أنها كبائر، وأن قتل الولد والزنى بحليلة الجار أكبر لما ذكر، فوضح وجه تصديق الآية للخبر، ولا يقال: إن الإشارة ترجع إلى المجموع، فالتهويل خاص بمن ارتكب مجموع هذه الذنوب لأنا نقول: السياق يأباه، لأن تكرار "لا" أفاد - كما حققه الرضي - ورود النفي على وقوع الخصال الثلاث حال الاجتماع والانفراد، فالمعنى: لا يوقعون شيئاً منها، فكان معنى ومن يفعل ذلك ومن يفعل شيئاً من ذلك - ليرد الإثبات على ما ورد عليه النفي، فيحصل التناسب، وأما عدم منافاة الآية للترتيب فمن وجهين:

الأول: أن الأصل في التقديم الاهتمام بما سبقت له الآية، وهو التنفير المفيد للتغليظ، فيكون كل واحد منها أعلى مما بعده.

الثاني: أن الواو لا تنافيه، وقد وقعت الأفعال مرتبة في الذكر كما رتبت في الحديث ب "ثم" فيكون مراداً بها الترتيب، ولما أتم ﷻ تهديد الفجار، على هذه الأوزار، أتبعه ترغيب الأبرار، في الإقبال على الله ﷻ العزيز الغفار، فقال ﷻ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ أي رجع إلى الله ﷎ عن شيء مما كان فيه من هذه النقائص ﴿ وَءَامَنَ ﴾ أي



أوجد الأساس الذي لا يثبت عمل بدونه وهو الإيمان، أو أكد وجوده وعمل ولما كان الرجوع عنه أغلظ، أكد فقال ﷻ: ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ أي مؤسساً على أساس الإيمان، ثم زاد في الترغيب بالإتيان بالفاء ربطاً للجزاء بالشرط دليلاً على أنه سببه فقال ﷻ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي العالو المنزلة ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ ﴾ وذكر الاسم الأعظم تعظيماً للأمر وإشارة إلى أنه ﷻ لا منازع له ﴿ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ ﴾ أي بندمهم على تلك السيئات، لكونها ما كانت حسنات فيكتب لهم ثوابها بعزمهم الصادق على فعلها لو استقبلوا من أمرهم ما استدبروا، بحيث إذا رأى أحدهم تبديل سيئاته بالحسنات تمنى لو كانت سيئاته أكثر! وورد أن بعضهم يقول: رب! إن لي سيئات ما رأيتها، ولما كان هذا أمراً لم تجرِ العادة بمثله، أخبر أنه صفته ﷻ أزلاً وأبداً، فقال ﷻ مكرراً للاسم الأعظم لئلا يقيد غفرانه شيء مما مضى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام على الاطلاع ﴿ غَفُورًا ﴾ أي ستوراً لذنوب كل من تاب بهذا الشرط ﴿ رَّحِيمًا ﴾ له بأن يعامله بالإكرام كما يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة، ربما جل عن طوق البشر، وأشار إلى التطريق له بالوصفين العظيمين، أتبع ذلك بيان الطريق إليه بما أجرى من العادة فقال ﷻ: ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ أي عن المعصية كفراً كانت أو ما دونه وعمل تصديقاً لادعائه التوبة، ولما كان في سياق الترغيب، أعراه من التأكيد فقال ﷻ: ﴿ صَٰلِحًا ﴾ ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفاً ورغب ﷻ في ذلك بقوله معلماً أنه يصل إلى الله ﷻ ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ ﴾ أي

يرجع واصلاً إلى الله ﷻ أي الذي له صفات الكمال، فهو يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ﴿ مَتَابًا ﴾ أي رجوعاً عظيماً جداً بأن يرغبه الله ﷻ في الأعمال الصالحة، فلا يزال كل يوم في زيادة في نيته وعمله، فيخف ما كان عليه ثقيلاً، ويتيسر له ما كان عسيراً، ويسهل عليه ما كان صعباً، كما تقدم في قوله ﷻ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴿٩﴾ ﴾

يونس: ٩، ولا يزال كذلك حتى يحبه فيكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، بأن يوفقه للخير، فلا يسمع إلا ما يرضيه، وهكذا، ومن أجراه على ظاهره فعليه لعنة الله، لمخالفته إجماع المسلمين"[1]

"إنهم لا يدعون مع الله ﷻ إلهاً آخر، ولا يشركون به أحداً، ولا يقتلون أيَّ إنسان حرم الله ﷻ قتله إلا بالحقِّ، لا يرتكبون جريمة الزِّنا، وعباد الرحمن يبتعدون عن الكبائر الثَّلاثة المذكورة وغيرها، أمَّا الَّذين يفعلونها، أو يرتكبون واحدة منها، فإنَّ الله ﷻ يهدِّدهم بالعذاب يوم القيامة، وهذا العذاب مضاعف لهم؛ لأنَّهم يستحقُّون ذلك بسبب جرائمهم، ويخلدون في ذلك العذاب مهانين أذلاَّء، وبعد التَّهديد والتَّرهيب تذكر الآيات التَّرغيب والتَّبشير، وتفتح للكافرين والمذنبين باب التَّوبة والإصلاح، فمهما ارتكب أحدهم من معاصٍ وذنوب، ثم تاب إلى الله ﷻ، وتخلَّى عنها، وغيَّر طريقة حياته، فإنَّ الله ﷻ يتوب عليه، ولا تكون توبته صحيحة مقبولة إلاَّ بإيمانه إن كان كافراً، ثمَّ إكثاره من الأعمال الصَّالحة، عند ذلك يغفر الله ﷻ له، وهو الغفور الرَّحيم، ويمنُّ عليه بمنَّة أخرى وهي أن يبدل سيئاته السابقة حسنات، مهما كثرت وتعدَّدت، وهذا كرم غامر من الله ﷻ، وفوز مبين لهذا التَّائب المستقيم، وباب التَّوبة

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 425 – 431).





مفتوح لكلِّ مذنب، يستطيع أن يتوب توبة صادقة نصوحاً، ويتبعها بالعمل الصَّالح، وعندما يفعل ذلك يكون قد تاب إلى الله ﷻ متاباً"[1]

الشرك هو إثبات الشريك لله سبحانه وتعالى وهو شرك أكبر، ومراعاة غير الله سبحانه وتعالى في بعض الأمور وهو شرك أصغر، ومن مظاهر الشرك الاستغاثة والتوسل بغير الله سبحانه وتعالى، والزيارة البدعية للمقابر، الذبح لغير الله ﷻ والنذر لغيره سبحانه وتعالى، والحلف بغيره، الخوف من غير الله سبحانه وتعالى.

ومن مضار الشرك: حبوط الأعمال وإن كانت كثيرة، والخلود الأبدي في النار، واستباحة دمه وماله وعرضه بالسبي، والقلق والاضطراب والنكد والخوف الدائم والحزن اللازم، يدعو إلى كل رذيلة ويبعد عن كل فضيلة، ويعتبر أعظم من جميع المعاصي.[2]

فالقتل هو إزالة الروح عن الجسد كالموت، أو فعل يحصل به زهوق الروح.[3]

ومن مضار القتل: أنه في جهنم خالداً فيها، كما أنه من عادات الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، والقاتل يضيق عليه في الدنيا والآخرة، كما هو من أكبر الكبائر."[4]

الزنا: هو وطء المرأة من غير عقد شرعي، أو إيلاج الحشفة بفرج محرم لعينه خالٍ عن الشبهة مشتهي.[5]

ومن مضار الزنا: يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة، وهو غضب الرب سبحانه وتعالى بانتهاك حرمه وإفساد خلقه، وهم خبث النفس وإذهاب الحياء ورفع الحشمة، ظلمة القلب وطمس نوره، الفقر اللازم لأن الله ﷻ

[1] التفسير المنهجي (7/ 60)
[2] نظرة النعيم (10/ 4710-4713)
[3] نظرة النعيم (11/ 5285)
[4] نظرة النعيم (11/ 5299)
[5] التوقيف على مهمات التعاريف ص 187





مفقر الزناة، سواد وجه الزاني وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين.[1]

[1] نظرة النعيم (10/ 4583)





الصفة السابعة

البعد عن شهادة الزور أو تجنب الكذب

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ الفرقان: ٧٢

"فالمسلم لا يحضر مجالس اللهو والكذب، ولا يؤدي شهادة الزور مهما كانت البواعث والأسباب؛ لأنها محرمة لذاتها، لذا قال أكثر أهل العلم: "ولا تقبل له شهادة أبداً، وإن تاب وحسنت حاله، فأمره إلى الله سبحانه وتعالى"[1]

قال الزمخشري: "يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها، تنزها عن مخالطة الشر وأهله، وصيانة لدينهم عما يثلمه؛ لأن مشاهد الباطل شركة فيه، ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة: هم شركاء فاعليه في الإثم؛ لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به، وسبب وجوده، والزيادة فيه، لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه، وفي مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام: "إياكم ومجالسة الخطائين، ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، اللغو: كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح، والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به، مروا معرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ

[1] التفسير المنير للزحيلي (10/ 127)





﴿٥٥﴾ ﴾ القصص: ٥٥، ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه"[1]

قال البيضاوي: "والذين لا يشهدون الزور لا يقيمون الشهادة الباطلة، أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل شركة فيه، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ ما يجب أن يلقى ويطرح، ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية فيما يستهجن التصريح به"[2]

قال القاسمي: "﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الباطل، يقال: (شهد كذا) أي: حضره، فـ﴿الزُّورَ﴾ مفعول به بتقدير مضاف أي: محاله، و﴿يَشْهَدُونَ﴾ من الشهادة، فالزور منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أي: شهادة الزور أو بالزور، ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعلية في الإثم؛ لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به، وسبب وجوده، والزيادة فيه لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم في النظر إليه، ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: اتفق مرورهم بأهل اللغو، وهو كل ما ينبغي ويطرح، مروا معرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم كقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ

---

[1] الكشاف للزمخشري (3/ 295).
[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 131).





أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

﴾ القصص: ٥٥، ويدخل في ذلك الإغضاء عن الفواحش، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به وذلك لأن كراما : جمع كريم بمعنى مكرم لنفسه وغيره بالصفح ونحوه"[1]

ويقول وهبة الزحيلي: "أي الذين لا يشهدون شهادة الزور وهي الكذب متعمداً على غيره، أو يحضرون مواضع الكذب أي لا يحضرون الزور ولهذا قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرّوا، ولم يتدنسوا منه بشيء، والآية تدل على أمرين: تحريم شهادة الزور وتجنب مجالس اللغو أو العفو عن المسيء"[2]

ويقول الصابوني: "لا يشهدون الشهادة الباطلة شهادة الزور التي فيها تضييع لحقوق الناس، وإذا مروا بمجالس اللغو وهي الأماكن التي يكون فيها العمل القبيح كمجالس اللهو مروا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس"[3]

ويقول صاحب الظلال: "وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب، أنهم لا يؤدون شهادة زور، لما في ذلك من تضييع الحقوق، والإعانة على الظلم، وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود في مجلس يقعفيه الزور بكل صنوفه وألوانه، ترفعاً منهم عن شهود مثل هذه المجالس، وهو أبلغ وأوقع، وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر، لا يشغلون أنفسهم به، ولا يلوثونها بسماعه،

---

[1] محاسن التأويل (7/ 444).
[2] التفسير المنير للزحيلي (10/ 122)
[3] صفوة التفاسير للصابوني (2/ 340)





إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر وليس لديه من الفراغ ما يدفعه إلى الشغل باللهو الفارغ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها في نفسه وفي الحياة كلها في شغل شاغل"[1]

قال الرازي: "قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: الزور يحتمل إقامة الشهادة الباطلة، ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب، كقوله ﷻ: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأنعام: ٦٨ ويحتمل حضور كل موضع يجري فيه ما لا ينبغي ويدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفساق؛ لأن من خالط أهل الشر ونظر إلى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم في تلك المعصية، لأن الحضور والنظر دليل الرضا به، بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه، لأن الذي حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "المراد مجالس الزور التي يقولون فيها الزور على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ"، وقال محمد بن الحنفية: "الزور الغناء، واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله في الكذب أكثر.

المسألة الثانية: الأصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك، ومنهم من فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة، وهو ضعيف؛ لأن المباحات لا تعد لغوا، فقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ ﴾ أي بأهل اللغو.

---
[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2580)



المسألة الثالثة: لا شبهة في أن قوله ﷻ: ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ معناه أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو، وإكرامهم لها لا يكون إلا بالإعراض وبالإنكار وبترك المعاونة والمساعدة، ويدخل فيه الشرك واللغو في القرآن وشتم الرسول ﷺ، والخوض فيما لا ينبغي، وأصل الكلمة من قولهم: ناقة كريمة، إذا كانت تعرض عند الحلب تكرماً، كأنها لا تبالي بما يحلب منها للغزارة، فاستعير ذلك للصفح عن الذنب، **وقال الليث:** يقال: تكرم فلان عما يشينه، إذا تنزه وأكرم نفسه عنه، ونظير هذه الآية قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ القصص: ٥٥، وعن الحسن: لم تسفههم المعاصي، وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا، وقيل: إذا ذكر النكاح كنوا عنه"[1]

قال ابن عاشور: "أتبع خصال المؤمنين الثلاث التي هي قوام الإيمان بخصال أخرى من خصالهم هي من كمال الإيمان، والتخلق بفضائله، ومجانبة أحوال أهل الشرك. وتلك ثلاث خصال أولاها أفصح عنه قوله هنا ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ وفعل (شهد) يستعمل بمعنى (حضر) وهو أصل إطلاقه كقوله ﷻ: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴿١٨٥﴾ ﴾ البقرة: ١٨٥، ويستعمل بمعنى أخبر عن شيء شهده وعلمه كقوله ﷻ: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴿٢٦﴾ ﴾ يوسف: ٢٦

---
[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 485 – 486).

والزور: الباطل من قول أو فعل وقد غلب على الكذب، وقد تقدم في أول السورة فيجوز أن يكون معنى الآية: أنهم لا يحضرون محاضر الباطل التي كان يحضرها المشركون وهي مجالس اللهو والغناء والغيبة ونحوها، وكذلك أعياد المشركين وألعابهم، فيكون الزور مفعولاً به ليشهدون، وهذا ثناء على المؤمنين بمقاطعة المشركين وتجنبهم، فأما شهود مواطن عبادة الأصنام فذلك قد دخل في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴿٦٨﴾﴾ الفرقان: ٦٨، وفي معنى هذه الآية قوله ﷻ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ الأنعام: ٦٨، ويجوز أن يكون فعل ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ بمعنى الإخبار عما علموه ويكون الزور منصوباً على نزع الخافض، أي لا يشهدون بالزور؛ أو مفعولاً مطلقاً لبيان نوع الشهادة، أي لا يشهدون شهادة هي زور لا حق، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ مناسب لكلا الجملتين.

واللغو: الكلام العبث والسفه الذي لا خير فيه، وتقدم في قوله ﷻ: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ مريم: ٦٢، ومعنى المرور به المرور بأصحابه اللاغين في حال لغوهم، فجعل المرور بنفس اللغو للإشارة إلى أن أصحاب اللغو متلبسون به وقت المرور، ومعنى ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أنهم يمرون وهم في حال كرامة، أي: غير متلبسين بالمشاركة في اللغو فيه، فإن السفهاء إذا مروا بأصحاب اللغو أنسوا بهم ووقفوا عليهم وشاركوهم في لغوهم فإذا فعلوا ذلك كانوا في غير حال كرامة.



والكرامة: النزاهة ومحاسن الخلال، وضدها اللؤم والسفالة، وأصل الكرامة أنها نفاسة الشيء في نوعه، وإذا مر أهل المروءة على أصحاب اللغو تنزهوا عن مشاركتهم وتجاوزوا ناديهم فكانوا في حال كرامة، وهذا ثناء على المؤمنين بترفعهم على ما كانوا عليه في الجاهلية كقوله ﷻ: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الأنعام: ٧٠، وإعادة فعل ﴿ مَرُّواْ ﴾ لبناء الحال عليه، وذلك من محاسن الاستعمال ومنه قوله ﷻ: ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴿٦٣﴾ ﴾ القصص: ٦٣"[1]

ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، ولا يشغلون أنفسهم باللغو، والزور هو كل ما حرمه الله ﷻ من الأقوال والأفعال، ومنه تقديم شهادات كاذبة لأكل حق أو نصرة باطل، وشهادات الزور الكاذبة معروفة، يبتعد عنها عباد الرحمن، وهي من أكبر الكبائر، وعباد الرحمن لا يكتفون بعدم شهادة الزور، وإنما لا يحضرون مجالس الباطل، التي تكون فيها الأقوال والأفعال المنهيُّ عنها، ولا يشهدونها، ويقاطعونها ويبتعدون عنها، وإذا مرُّوا بمجالس اللَّغو في طريقهم لم يشاركوا فيها، ولم يلوِّثوا أنفسهم بها، وأكرموا أنفسهم بصيانتها عنها؛ لأنَّهم في شغل شاغل، بأداء ما أوجبه الله ﷻ عليهم"[2]

قال ابن حجر: "شهادة الزور: هي الشهادة بالكذب ليتوصل بها إلى الباطل من إتلاف نفس أو أخذ مال أو تحليل حرام أو تحريم حلال، وحكمها أنها من الكبائر"[3]

قال البقاعي: "ولما وصف عباده ﷻ بأنهم تحلوا بأصول الفضائل، وتخلوا عن أمهات الرذائل، ورغب التوبة، لأن الإنسان لعجزه لا ينفك عن النقص، وكان قد مدحهم

---

[1] التحرير والتنوير (19/ 78 – 79).
[2] التفسير المنهجي (7/ 64)
[3] فتح الباري لابن حجر (5/ 426)





بعد الأولى من صفاتهم بالحلم عن الجهل مدحهم قبل الأخرى من أمداحهم وعقب تركهم الزنى بالإعراض أصلاً عن اللغو الذي هو أعظم مقدمات الزنى فقال ﷻ:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ﴾ أي يحضرون انحرافاً مع الهوى كما تفعل النار التي الشيطان منها الزور أي القول المنحرف عن الصدق كذباً كان أو مقارباً له فضلاً عن أن يتفوهوا به ويقروا عليه؛ **قال ابن جرير**: "وأصل الزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه أنه بخلاف ما هو به فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق، والشرك قد يدخل في ذلك لأنه محسن لأهله حتى ظنوا أنه حق وهو باطل، ويدخل فيه الغناء لأنه أيضاً مما يحسن بترجيع الصوت حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضاً يدخل فيه بتحسين صاحبه إياه حتى يظن أنه حق.

وعطف عليه ما هو أعم منه فقال: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ ﴾ أي الذي ينبغي أن يطرح ويبطل سواء كان من وادي الكذب أو العبث الذي لا يجدي، **قال ابن جرير**: وهو في كلام العرب كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح.

﴿ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ أي آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، إن تعلق بهم أمر أو نهي، بإشارة أو عبارة، على حسب ما يرونه نافعاً، أو معرضين إن كان لا يصلح شيء من ذلك لإثارة مفسدة أعظم من ذلك أو نحوه، رحمة لأنفسهم وغيرهم، وأما حضورهم لذلك وسكوتهم فلا، لأن النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به، وسبب لوجوده والزيادة فيه"[1]

---

[1] نظم الدرر في ترتيب الآيات والسور (13/ 432 -433)





يقول أبو السعود: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ﴾ لا يقيمون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه، ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ ﴾ على طريق الاتفاق ﴿ بِٱللَّغۡوِ ﴾ أي: ما يجب أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه ﴿ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به"[1]

يقول الطنطاوي: "وأصل الزور: تحسين الشيء ووصفه بغير صفته، ووضعه في غير موضعه، مأخوذ من الزّور بمعنى الميل والانحراف عن الطريق المستقيم إلى غيره، واللغو: هو ما لا خير فيه من الأقوال أو الأفعال.

أي: إن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يرتكبون شهادة الزور، ولا يحضرون المجالس التي توجد فيها هذه الشهادة؛ لأنها من أمهات الكبائر التي حاربها الإسلام، وفضلاً عن ذلك فإنهم ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ ﴾ أي: بالمجالس التي فيها لغو من القول أو الفعل ﴿ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ أي: أعرضوا عنها إكراماً لأنفسهم، وصوناً لكرامتهم، وحفاظاً على دينهم ومروءتهم، والتعبير بقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ ﴾ فيه إشعار بأن مرورهم على تلك المجالس كان من باب المصادفة والاتفاق؛ لأنهم أكبر من أن يقصدوا حضورها قصداً"[2]

قال السعدي: "﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ﴾ أي: لا يحضرون الزور أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة،

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 230).
[2] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 221).





كالخوض في آيات الله ﷻ، والجدال الباطل، والغيبة والنميمة، والسب والقذف والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة فربؤوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه"[1]

يقول ابن عثيمين: "أي لا يحضرون الزور القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله ﷻ، والجدال الباطل، والغيبة والنميمة، والسب، والقذف والاستهزاء، والغناء المحرم ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى ألا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، وإذا مروا باللغو وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية، ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم مروا كراماً أي نزهوا أنفسهم، وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربأوا بأنفسهم عنه، وفي قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 587.





﴿بِٱللَّغۡوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره، ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه"[1]

ومن مضار شهادة الزور: "سبب لسخط الله ﷻ ودخول النار، فيها ضياع حقوق الناس وظلمهم، وتطمس معالم العدل والإنصاف، وتعين الظالم على ظلمه وتعطي الحق لغير مستحقه، سبب لزرع الأحقاد والضغائن في القلوب، وفساد اجتماعي يعصف بالمجتمع ويدمره"[2]

ومن مضار الكذب: "أنه وسيلة لدمار صاحبه أمماً وأفراداً، ويؤدي بصاحبه إلى النار، يذهب المروءة والجمال والبهاء، يورث فساد الدين والدنيا، ودليل على خسَّة النفس ودناءتها"[3]

---

[1] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 26)
[2] نظرة النعيم (10/ 4780)
[3] نظرة النعيم (11/ 5430)





الصفة الثامنة

قبول المواعظ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣ ﴾ الفرقان: ٧٣

"فإذا قرئ القرآن عليهم ذكروا آخرتهم ومعادهم، ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع"[1]

يقول الطبري: "والذين إذا ذكَّرهم مذكِّر بحجج الله عز وجل، لم يكونوا صماً لا يسمعون، وعمياً لا يبصرونها ولكنهم يِقَاظُ القلوب، فهماء العقول، يفهمون عن الله سبحانه وتعالى ما يذِّكرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذاناً سمعته، وقلوباً وعته"[2]

ويقول وهبة الزحيلي: "أي والذين إذا ذُكِّروا بالآيات، أكبُّوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على ذكَّرهم بها بآذانٍ صاغية واعية، وعيون مبصرة متفتحة، وقلوب مستوعبة، لا كالكفار والمنافقين والعصاة من المؤمنين إذا سمعوا كلام الله عز وجل لم يتأثروا به، ولم يغيروا ما هم عليه، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم، وجهلهم وطغيانهم، كأنهم صمّ عمي"[3]

ويقول الصابوني: "إذا وعظوا بآيات القرآن وخوفوا بها لم يعرضوا عنها بل سمعوها بآذان واعية وقلوب وجلة"[4]

---

[1] التفسير المنير للزحيلي (10/ 127)
[2] جامع البيان للطبري (19/ 316)
[3] التفسير المنير للزحيلي (10/ 123)
[4] صفوة التفاسير للصابوني (2/ 340)





قال الزمخشري: "﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا ﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفى للصمم والعمى، كما تقول: لا يلقاني زيد مسلماً، هو نفى للسلام لا للقاء، والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعها، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم"[1]

ويقول صاحب الظلال: "وفي التعبير تعريض بالمشركين الذين ينكبون على آلهتهم وعقائدهم وأباطيلهم كالصم والعميان، لا يسمعون ولا يبصرون، ولا يتطلعون إلى هدى أو نور، وحركة الانكباب على الوجوه بلا سمع ولا بصر ولا تدبر حركة تصور الغفلة والانطماس والتعصب الأعمى، فأما عباد الرحمن فهم يدركون إدراكاً واعياً بصيراً ما في عقيدتهم من حق، وما في آيات الله عز وجل من صدق، فيؤمنوا إيماناً واعياً بصيراً، لا تعصباً أعمى ولا انكباباً على الوجوه، فإذا تحمسوا لعقيدتهم فإنما هي حماسة العارف المدرك البصير"[2]

قال القاسمي: "﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ أي وعظوا بها وخوفوا ﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ أي: بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية، مجتلين لها بعيون راعية، وإنما عبر بنفي الضد، تعريضاً لما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإعراض والإباء والنفرة، المستعار لها الخرور على تلك الحالة استعارة بديعة، لما

---

[1] الكشاف للزمخشري (3/ 295).
[2] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2580)





فيهم من إسقاطهم من الإنسانية إلى البهيمية، بل إلى أدنى منها، لأنها تسمع وتبصر، وقد نفينا عنهم، وفي التنزيل الكريم من توصيف المؤمنين بوجل قلوبهم لذكره ﷻ، وزيادة إيمانهم إذا تلي عليهم الذكر الحكيم، آيات عديدة، ولذا قال قتادة فيهم: "هم قوم عقلوا عن الله ﷻ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه" وقال الحسن البصري ﷺ: "كم من رجل يقرؤها، ويخر عليها أصم أعمى"[1]

قال ابن عاشور: "أريد تمييز المؤمنين بمخالفة حالة هي من حالات المشركين وتلك هي حالة سماعهم دعوة الرسول ﷺ وما تشتمل عليه من آيات القرآن وطلب النظر في دلائل الوحدانية، فلذلك جيء بالصلة منفية لتحصيل الثناء عليهم مع التعريض بتفظيع حال المشركين فإن المشركين إذا ذُكّروا بآيات الله ﷻ خَرُّوا صُمّاً وعمياناً كحال من لا يحبّ أن يرى شيئاً فيجعل وجهه على الأرض، فاستعير الخرور لشدة الكراهية والتباعد بحيث إن حالهم عند سماع القرآن كحال الذي يخرّ إلى الأرض لئلا يرى ما يكره بحيث لم يبقَ له شيء من التقوم والنهوض ، فتلك حالة هي غاية في نفي إمكان القبول، ومنه استعارة القعُود للتخلف عن القتال، وفي عكس ذلك يستعار الإقبال والتلقي والقيام للاهتمام بالأمر والعناية به، ويجوز أن يكون الخرور واقعاً منهم أو من بعضهم حقيقة؛ لأنهم يكونون جلوساً في مجتمعاتهم ونواديهم فإذا دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام طأطأوا رؤوسهم وقربوها من الأرض؛ لأن ذلك للقاعد يقوم مقام الفرار، أو ستر الوجه كقول أعرابي يهجو قوماً من طيء، وقريب من هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ نوح: ٧، وتقدم

[1] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 445)





الخرور الحقيقي في قوله ﷻ: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧﴾ الإسراء: ١٠٧، وقوله ﷻ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ۝٢٦﴾ النحل: ٢٦، وقوله ﷻ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۝١٤٣﴾ الأعراف: ١٤٣، ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ حالان من ضمير ﴿يَخِرُّوا﴾، مراد بهما التشبيه بحذف حرف التشبيه، أي يخِرّون كالصمّ والعُميان في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمبصرَ منها مما يُذكَّرون به، فالنفي على هذا منصبّ إلى الفعل وإلى قيده، وهو استعمال كثير في الكلام، وهذا الوجه أوجه"[1]

يقول النحاس: " أي لم يتغافلوا عنها ويتركوها حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر "[2]

قال الرازي: "أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها، وهم كالصم والعميان حيث لا يفهمونها ولا يبصرون ما فيها كالمنافقين"[3]

قال البيضاوي: " ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالوعظ أو القراءة، ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون

---
[1] التحرير والتنوير (19/ 80 – 81).
[2] معاني القرآن للنحاس (5/ 55).
[3] التفسير الكبير للرازي (24/ 486)





راعية، فالمراد من النفي نفي الحال دون الفعل كقولك: لا يلقاني زيد مسلماً، وقيل الهاء للمعاصي المدلول عليها باللغو"[1]

قال أبو السعود: "﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ ﴾ المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ أي: أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مجلين لها بعيون راعية، وإنما عبر عن ذلك بنفي الضد تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون، وقيل: الضمير للمعاصي المدلول عليها باللغو"[2]

قال الطنطاوي: "ثم بين ﷻ سرعة تأثرهم وتذكرهم، وقوة عاطفتهم نحو دينهم فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾

والمراد بآيات ربهم ﷻ، القرآن الكريم وما اشتمل عليه من عظات وهدايات..

أي: أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم إذا ذكرهم مذكر بآيات الله ﷻ المشتملة على المواعظ والثواب والعقاب، أكبوا عليها، وأقبلوا على المذكّر بها بآذان واعية، وبعيون مبصرة، وليس كأولئك الكفار أو المنافقين الذين ينكبون على عقائدهم الباطلة انكباب الصم العمى الذين لا يعقلون، وينكرون ما جاءهم به رسول ربهم ﷺ بدون فهم أو وعى أو تدبر، فالآية الكريمة مدح للمؤمنين على حسن تذكرهم وتأثرهم ووعيهم، وتعريض بالكافرين والمنافقين الذين يسقطون على باطلهم سقوط الأنعام على ما يقدم لها من طعام وغيره، والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية،

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 131)
[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (6/ 231)





مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها وهم كالصم العميان حيث لا يعونها كالمنافقين وأشباههم"[1]

قال البقاعي: "ولما ذكر وصفهم الذي فاقوا به، أشار إلى وصف الجهلة الذي سفلوا به، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ ﴾ أي ذكرهم غيرهم كائناً من كان، لأنهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله ﴿ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ أي الذي وفقهم لتذكر إحسانه إليهم في حسن تربيته لهم بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة، ﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ ﴾ أي لم يفعلوا فعل الساقطين المستعلين عليها الساترين لها؛ ثم زاد في بيان إعراضهم وصدهم عنها فقال منبها على أن المنفي القيد لا المقيد، وهو الخرور، بل هو موجود غير منفي بصفة السمع والبصر: ﴿ صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ أي كما يفعل المنافقون والكفار في الإقبال عليها سماعاً واعتباراً، والإعراض عنها تغطية لما عرفوا من حقيتها، وستراً لما رأوا من نورها، فعل من لا يسمع ولا يبصر كما تقدم عن أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق، وذلك وصف لعباد الرحمن بفعل ضد هذا، أي أنهم يسقطون عند سماعها ويبكون عليها، سقوط سامع منتفع بسمعه، بصير منتفع ببصره وبصيرته، سجداً يبكون كما تقدم في أول أوصافهم وإن لم يبلغوا أعلى الدرجات البصيرة – بما أشارت إليه المبالغة بزيادة النون جمع العمى"[2]

قال السعدي: "﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ ﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها، ﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ أي لم يقابلوها بالإعراض عنها

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 221 – 222).
[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 433 – 434)





والصمم عن سماعها وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ ﴾ السجدة: ١٥، يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذاناً سامعة وقلوباً واعية فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتباطاً"[1]

يقول ابن عثيمين: "التي أمرهم باستماعها، والاهتداء بها لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها، وعند سماعها كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ ﴾ السجدة: ١٥، يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتباطاً."[2]

"ابتعاد عباد الرحمن عن الزور واللغو، وإقبالهم على عبادة الله ﷻ، جعلهم سريعي التَّذكر، قريبي الاعتبار، في يقظة ووعي وانتباه، وعندما يذكرون بآيات ربهم ﷿ يتذكرون ويفهمون، ويتعاملون معها ببصيرة وفقه، ولم يعرضوا عنها كالصم العمى من الكفار، الذين لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون"[3]

[1] تفسير الكريم الرحمن للسعدي ص 587.
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 27)
[3] التفسير المنهجي (7/ 64)





قال قتادة: "لم يصمُّوا عن الحقِّ، ولم يعموا فيه، هم والله قوم عقلوا عن الله سبحانه وتعالى، وانتفعوا بما سمعوا من كتاب الله عز وجل"[1]

[1] تفسير ابن كثير (6/ 119)





الصفة التاسعة

الابتهال إلى الله ﷻ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ ﴾ الفرقان: ٧٤

"الابتهال إلى الله ﷻ يجعل توابع الإنسان من أزواج وذريات هداة مهديين مطيعين لله ﷻ، تقرّ النفوس بهم، وتثلج الصدور بسيرتهم العطرة، وأن يكونوا أئمة وقدوة يقتدى بهم في الخير، ولا يكون ذلك إلا إذا كان الداعي تقياً صالحاً، وهذا يدل على جواز الدعاء بالولد، للولد وللزوجة، وبأن يكون نفع الإنسان شاملاً غيره، وجزاؤهم الدرجات العليا في غرفات الجنان، مع التوقير والاحترام، بالتحية والسلام، والخلود الدائم والتمتع بحسن المقام والمنظر والاستقرار، ونفع الطاعة للعباد لا لله ﷻ، فالله ﷻ غني عن عباده، فلولا عبادتهم وكثرة استغاثتهم إليه في الشدائد ونحوها، لما بالى الله ﷻ بهم ولا اكترث بشأنهم فإن كذبوا بما دعوا إليه من الإيمان وعبادة الله ﷻ كان تكذيبهم ملازماً لهم، وجزاء التكذيب دائم لا مفرَّ منه"[1]

ويقول وهبة الزحيلي: "أي والذين يبتهلون إلى ربهم ﷻ داعين الله ﷻ أن يرزقهم زوجات صالحات وأولاداً مؤمنين صالحين مهديين للإسلام يعملون الخير، ويبتعدون عن الشر، تقرُّ بهم أعينهم، وتُسَرُّ بهم نفوسهم، فإن المؤمن إذا رأى من يعمل بطاعة الله ﷻ قرَّت عينه، وسُرَّ قلبه في الدنيا والآخرة، ويدعونه أيضاً أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير واتباع أوامر الدين، وبذلك أحبوا أن تتصل عبادتهم بعبادة زوجاتهم

[1] التفسير المنير للزحيلي (10/ 128)



وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع فهم دعاة خير وبر، وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً"[1]

يقول الطبري: "والذين يرغبون إلى الله ﷻ في دعائهم ومسألتهم بأن يقولوا: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرّ به أعيننا من أن تريناهم يعملون بطاعتك"[2]

قال الزمخشري: "سألوا ربهم ﷻ أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عمالاً لله ﷻ، يسرون بمكانهم وتقر بهم عيونهم، **وعن محمد بن كعب:** "ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله ﷻ"، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "هو الولد إذا رآه يكتب الفقه"، وقيل: سألوا أن يلحق الله ﷻ بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم، أراد أئمة، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس، كقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴿٦٧﴾﴾ غافر: ٦٧، أو أرادوا اجعل كل واحد منا إماماً، أو أراد جمع آم، كصائم وصيام، أو أرادوا اجعلنا إماماً واحداً لاتحادنا واتفاق ملتنا، وعن بعضهم: في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها، وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة، فإن قلت: ﴿مِنْ﴾ في قوله ﷻ: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ ما هي؟ قلت: يحتمل أن تكون بيانية، كأنه قيل: هب لنا قرة أعين، ثم بينت القرة وفسرت بقوله ﷻ: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ ومعناه: أن يجعلهم الله ﷻ لهم قرة أعين، وهو من قولهم: رأيت منك أسداً، أي: أنت أسد، وأن تكون ابتدائية على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح، فإن قلت: لم قال قرة أعين فنكر وقلل ؟ قلت: أما التنكير فلأجل تنكير القرة؛ لأن

[1] التفسير المنير للزحيلي (10/ 123)
[2] جامع البيان للطبري (19/ 318)

المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قيل: هب لنا منهم سروراً وفرحاً، وإنما قيل: ﴿ أَعْيُنٍ ﴾ دون عيون؛ لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، قال ﷻ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ سبأ: ١٣، ويجوز أن يقال في تنكير ﴿ أَعْيُنٍ ﴾ أنها أعين خاصة، وهي أعين المتقين"[1]

قال البيضاوي: "﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله ﷻ سر بهم قلبه وقرت بهم عينه لما يرى من مساعدتهم له في الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة، و ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية أو بيانية كقولك: رأيت منك أسداً، وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر "وذريتنا" وقرأ ابن عامر والحرميان وحفص ويعقوب (وذرياتنا) بالألف، وتنكير الـ ﴿ أَعْيُنٍ ﴾ لإرادة تنكير الـ ﴿ قُرَّةَ ﴾ تعظيماً وتقليلها؛ لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل، وتوحيده إما للدلالة على الجنس وعدم اللبس كقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴿٦٧﴾ ﴾ غافر: ٦٧ أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم، وقيل جمع آم كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم"[2]

---

[1] الكشاف للزمخشري (3/ 296)

[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 131 – 132).





قال القاسمي: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي: أولاداً وحفدة، تقر بهم العيون وتسر بمكانهم الأنفس، لحيازتهم الفضائل واتصافهم بأحسن الشمائل، وقرة العين إما من القر وهو البرد؛ لأن دمعة السرور باردة، لذا قيل في ضده: أسخن الله ﷻ عينه أو من القرار لعدم النظر لغيره، وجوز في من أن تكون ببيانه وعليه قول كثير من أن فيه الدعاء بصلاح الزوجات، وقوله ﷻ: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي: أئمة، اكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، مع رعاية الفواصل، أي: يقتدى بنا في الخير أو هداة دعاة إلى الخير، فإن ذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً"[1]

قال الرازي: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم (وذرياتنا) بألف الجمع، وحذفها الباقون على التوحيد، والذرية تكون واحداً وجمعاً.

المسألة الثانية: أنه لا شبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم في الدين لا في الأمور الدنيوية من المال والجمال، ثم ذكروا فيه وجهان:

أحدهما: أنهم سألوا أزواجاً وذرية في الدنيا يشاركونهم، فأحبوا أن يكونوا معهم في التمسك بطاعة الله ﷻ، فيقوى طمعهم في أن يحصلوا معهم في الجنة، فيتكامل سرورهم في الدنيا بهذا الطمع، وفي الآخرة عند حصول الثواب.

[1] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 445)





والثاني: أنهم سألوا أن يلحق الله ﷻ أزواجهم وذريتهم بهم في الجنة ليتم سرورهم بهم.

المسألة الثالثة: فإن قيل: ﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾ ما هي؟ قلنا: يحتمل أن تكون بيانية، كأنه قيل: هب لنا قرة أعين، ثم بينت القرة وفسرت بقوله ﷻ: ﴿ مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾، وهو من قولهم: رأيت منك أسداً، أي: أنت أسد، وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح، فإن قيل: لم قال: ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فنكر وقلل؟ قلنا: أما التنكير فلأجل تنكير القرة؛ لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قال: هب لنا منهم سروراً وفرحاً، وإنما قال: ﴿ أَعْيُنٍ ﴾ دون عيون؛ لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، قال ﷻ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ سبأ: ١٣

المسألة الرابعة: **قال الزجاج:** "أقر الله ﷻ عينك؛ أي: صادف فؤادك ما يحبه، وقال المفضل في قرة العين ثلاثة أقوال:

أحدها: برد دمعتها، وهي التي تكون مع الضحك والسرور، ودمعة الحزن حارة.

والثاني: نومها؛ لأنه يكون مع ذهاب الحزن والوجع.

والثالث: حضور الرضا.

المسألة الخامسة: قوله ﷻ: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الأقرب أنهم سألوا الله ﷻ أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم ويقتدى بهم، قال بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها، قال ﷻ على لسان





إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ ﴾ الشعراء: ٨٤، وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة.

المسألة السادسة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله سبحانه وتعالى، قالوا: لأن الإمامة في الدين لا تكون إلا بالعلم والعمل، فدل على أن العلم والعمل إنما يكون بجعل الله سبحانه وتعالى وخلقه، **وقال القاضي:** "المراد من السؤال الألطاف التي إذا كثرت صاروا مختارين لهذه الأشياء، فيصيرون أئمة، والجواب: أن تلك الألطاف مفعولة لا محالة، فيكون سؤالها عبثاً".

المسألة السابعة: قال الفراء: ﴿ إِمَامًا ﴾، ولم يقل: أئمة، كما قال للاثنين: ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٦ ﴾ الزخرف: ٤٦، ويجوز أن يكون المعنى: اجعل كل واحد منا إماماً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ٦٧ ﴾ غافر: ٦٧، **وقال الأخفش:** "الإمام جمع واحده آم كصائم وصيام، **وقال القفال:** وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد، كأنه قيل: اجعلنا حجة للمتقين، ومثله البينة، يقال: هؤلاء بينة فلان"[1]

قال القشيري: " قرة العين من به حياة الروح، وإنما يكون كذلك إذا كان بحقّ الله عز وجل قائماً، ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه عز وجل معانقاً، ولمخالفة أمره مفارقاً،

[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 486 – 487).





﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الإمام من يقتدى به ولا يبتدع، ويقال إن الله ﷻ مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع، ولم يدّعوا فيها اختيارهم فالإمامة بالدعاء لا بالدعوى، فقالوا: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾"[1]

قال أبو السعود: " ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله ﷻ وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له في مناهج الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة حسبما وعد بقوله ﷻ: ﴿ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴿٢١﴾ ﴾ الطور: ٢١، وتنكير الأعين لإرادة تنكير القرة تعظيماً وتقليلها لأن المراد أعين المتقين ولا ريب في قلتها نظراً إلى غيرها ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مواسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الإلباس كقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ غافر: ٦٧ أو لأن المراد واجعل كل واحد منا إماماً أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وأنت خبير بأن مدار الكل صدور هذا الدعاء إما عن الكل بطريق المعية وأنه محال لاستحالة اجتماعهم في عصر واحد فما ظنك باجتماعهم في مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة وإما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره في استدعاء الإمامة وأنه ليس بثابت جزماً بل الظاهر صورة عنهم بطريق الانفراد وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلني للمتقين

---

[1] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 652)





إماماً خلا أنه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد إلى الإيجاز على طريقة قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ المؤمنون: ٥١، وأتقى إماماً على حاله وقيل الإمام جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم وإعادة الموصول في المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإبذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء من ذلك تتمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي"[1]

قال السعدي: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا ﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿ وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ﴾ أي: تقر بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم ﷻ عالمين عاملين وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم فإنه دعاء لأنفسهم لأن نفعه يعود عليهم ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم فقالوا: ﴿ هَبۡ لَنَا ﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين لأن بصلاح من ذكر يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم، ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمال من عباد الله الصالحين وهي درجة الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدى بأفعالهم، ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون، ومن

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 231).





المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة درجة الإمامة في الدين لا تتم إلا بالصبر واليقين، كما قال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة: ٢٤، فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله ﷻ وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل"[1]

ويقول الصابوني: "أي اجعل لنا في الأزواج والبنين مسرة وفرحاً بالتمسك بطاعتك والعمل بمرضاتك، واجعلنا قدوة يقتدى بنا، المتقون دعاة إلى الخير هداة مهتدين"[2]

قال ابن عاشور: "هذه صفة للمؤمنين بأنهم يعنون بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدعون الله ﷻ أن يرزقهم أزواجاً وذريات تقر بهم أعينهم، فالأزواج يطعنهم باتباع الإسلام وشرائعه فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والذريات إذا نشأوا نشأوا مؤمنين، وقد جمع ذلك لهم في صفة قرة أعين، فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقر عيون المؤمنين إلا بأزواج وأبناء مؤمنين، وقد نهى الله ﷻ المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في العصمة بقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴿١٠﴾ ﴾ الممتحنة: ١٠، وقال ﷻ: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الأحقاف: ١٧

---

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 587.
[2] صفوة التفاسير للصابوني (2/ 340)



فمن أجل ذلك جعل دعاؤهم هذا من أسباب جزائهم بالجنة وإن كان فيه حظ لنفوسهم بقرة أعينهم إذ لا يناكد حظ النفس حظ الدين في أعمالهم، و﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ مِنْ أَزْوَٰجِنَا ﴾ للابتداء، أي اجعل لنا قرة أعين تنشأ من أزواجنا وذرياتنا، و﴿ وَذُرِّيَّٰتِنَا ﴾ بدون ألف بعد التحتية، ويستفاد معنى الجمع من الإضافة إلى ضمير ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ أي: ذرية كل واحد، **والأعين**: هي أعين الداعين، أي قرة أعين لنا، وإذ قد كان الدعاء صادراً منهم جميعاً اقتضى ذلك أنهم يريدون قرة أعين جميعهم، وكما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرياتهم سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله ﷻ إلى الإيمان أن يجعلهم قدوة يقتدي بها المتقون، وهذا يقتضي أنهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجات العظيمة من التقوى، فإن القدوة يجب أن يكون بالغاً أقصى غاية العمل الذي يرغب المهتمون به الكمال فيه، وهذا يقتضي أيضاً أنهم يسألون أن يكونوا دعاة للدخول في الإسلام وأن يهتدي الناس إليه بواسطتهم، **والإمام** أصله: المثال والقالب الذي يصنع على شكله مصنوع من مثله، وأطلق الإمام على القدوة تشبيها بالمثال والقالب، وغلب ذلك فصار الإمام بمعنى القدوة، وقد تقدم في قوله ﷻ: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ البقرة: ١٢٤، ووقع الإخبار بـ ﴿ إِمَامًا ﴾ وهو مفرد على ضمير جماعة المتكلمين؛ لأن المقصود أن يكون كل واحد منهم إماماً يقتدى به، فالكلام على التوزيع، أو أريد من إمام معناه الحقيقي وجرى الكلام على التشبيه البليغ، وقيل: إمام جمع، مثل هجان وصيام ومفرده: إم"[1]

[1] التحرير والتنوير (19/ 81 – 83).





ويقول صاحب الظلال: "وهذا هو الشعور الفطري الإيماني العميق، شعور الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله ﷻ وفي أولهم الذرية والأزواج، فهم أقرب الناس تبعة وهم أمانة يسأل عنها الرجال، والرغبة كذلك في أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير، يأتم به الراغبون في الله ﷻ، وليس في هذا من أثرة ولا استعلاء فالركب كله في الطريق إلى الله ﷻ"[1]

يصف الله ﷻ دعاء عباد الرحمن الذين يستحقون دخول الجنة، فهم يدعونه أ يقرّ عيونهم برؤية أزواجهم وذرياتهم طائعين له ﷻ وأن يجعلهم أئمة يقتدى بهم المتقون، وهذا أحسن ما يطلب.

قال ابن عطية: "وقرة العين يحتمل أن تكون من القرار، ويحتمل أن تكون من القر، وهو الأشهر لأن دمع السرور بارد ودمع الحزن ساخن، فمن هذا يقال أقر الله ﷻ عينك وأسخن الله ﷻ عين العدو، وقرة العين في الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله ﷻ، والوجه من ذلك بأنه كان في أول الإسلام يهتدي الأب والابن كافر والزوج والزوجة كافرة فكانت قرت عيونهم في إيمان أحبابهم، وقوله ﷻ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قيل هو جمع، آم مثل قائم وقيام وقيل هو مفرد اسم جنس أي اجعلنا يأتم بنا المتقون، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقياً قدوة وهذا هو قصد الداعي"[2]

قال البقاعي: "ولما ذكر هذه الخصلة المثمرة لما يلي الخلصة الأولى، ختم بما ينتج الصفة الأولى، فقال مؤذناً بأن إمامة الدين ينبغي أن تطلب ويرغب فيها: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ علماً منهم بعد اتصافهم بجميع ما مضى أنهم أهل للإمامة: ﴿رَبَّنَا

---

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2581)

[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (4/ 222).



هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا ﴾ اللاتي قرنتها بنا كما فعلت لنبيك ﷺ، فمدحت زوجته في كلامك القديم، وجعلت مدحها يتلى على تعاقب الأزمان والسنين ﴿ وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ﴾ ولما كان المتقون – الذين يفعلون الطاعة ويسرون بها – قليلاً في جنب العاصين، أتى بجمع القلة ونكر فقال: أعين أي من الأعمال أو من العمال يأتمون بنا، لأن الأقربين أولى بالمعروف، ولا شيء أسر للمؤمن ولا أقر لعينه من أن يرى حبيبه يطيع الله ﷻ، فما طلبوا إلا أن يطاع الله ﷻ فتقر أعينهم، ف "من" إما تكون مثلها في: رأيت منك أسداً، وإما أن تكون على بابها، وتكون القرة هي الأعمال، أي هب لنا منهم أعمالاً صالحة فجعلوا أعمال من يعز عليهم هبة لهم، وأصل القرة البرد لأن العرب تتأذى بالحر وتستروح إلى البرد، فجعل ذلك كناية عن السرور ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا ﴾ أي إيانا وإياهم ﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي عامة من الأقارب والأجانب، ولما كان المطلوب من المسلمين الاجتماع في الطاعة حتى تكون الكلمة في المتابعة واحدة، أشاروا إلى ذلك بتوحيد الإمام وإن كان المراد الجنس، فقالوا: ﴿ إِمَامًا ﴾ أي فنكون علماء مخبتين متواضعين كما هو شأن إمامة التقوى في إفادة التواضع والسكينة، لنحوز الأجر العظيم، إذ الإنسان له أجره وأجر من اهتدى به فعمل بعمله "من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" وعكسه"[1]

يقول الطنطاوي: "ثم ذكر ﷻ في نهاية الحديث عنهم أنهم لا يكتفون بهذه المناقب الحميدة التي وهبهم الله ﷻ إياها، وإنما هم يتضرعون إليه ﷻ أن يجعل منهم الذرية

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 434 -435)





الصالحة، وأن يرزقهم الزوجات الصالحات، فقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي: يقولون في دعائهم وتضرعهم يا رَبَّنا هَبْ لَنا بفضلك وجودك ﴿ مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي: ما يجعل عيوننا تسر بهم، ونفوسنا تنشرح برؤيتهم، وقلوبنا تسكن وتطمئن وجودهم، لأنهم أتقياء صالحون مهتدون، و﴿ وَٱجْعَلْنَا ﴾ يا ربنا ﴿ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي: اجعلنا قدوة وأسوة للمتقين، يقتدون بنا في أقوالنا الطيبة، وأعمالنا الصالحة، فأنت تعلم يا مولانا أننا نعمل على قدر ما نستطيع في سبيل إرضائك وفي السير على هدى رسولك ﷺ هذه هي صفات عباد الرحمن ذكرها القرآن في هذه الآيات الكريمة، وهي تدل على قوة إيمانهم، وصفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم"[1]

يقول ابن عثيمين: "أي قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات تَقَرُّ بهم أعيننا، وإذا استقرأنا حالهم وصفاته، عرفنا من هممهم، وعلو مرتبتهم أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطعين لربهم ﷻ عالمين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم؛ لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم فقالوا هب لنا بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين؛ لأن بصلاح من ذُكر يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم، واجعلنا للمتقين إماماً أي وصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين، والكمال من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 222)





في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم ويُطْمأنُّ لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون، ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة درجة الإمامة في الدين لا تتم إلا بالصبر واليقين، فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله ﷻ وعن معصيته، وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً، وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل"[1]

"من اهتمام عباد الرّحمن بأزواجهم وذرِّياتهم، وتكثير الصالحين أنَّهم يعلِّمونهم ويربّونهم، ويسألون الله ﷻ أن يوفِّقهم للإيمان والعمل الصَّالح، لتقرَّبهم أعينهم، ويفرحون بصلاحهم، وبذلك يكونون معهم بالجنَّة، كما أنَّهم يسألون الله ﷻ أن يجعلهم أئمة هدى للمتَّقين، يقتدون بهم ويسيرون على طريقهم"[2]

ومن فوائد الابتهال: حب الله سبحانه وتعالى والإلحاح عليه بالسؤال والالتجاء إليه في الكرب والضيق وعند شدة اليأس، وتعلق المسلم بربه ﷻ في قضاء حوائجه، وفيه راحة للنفس ونقاء للقلب، وأنه يفرج الكرب ويزيح الغمة.[3]

[1] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 27)
[2] التفسير المنهجي (7/ 64- 65)
[3] نظرة النعيم (2/ 9)





جزاء عباد الرحمن والكافرين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٧٦ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ۝٧٧ ﴾ الفرقان: ٧٥ - ٧٧

يقول الزمخشري: "المراد يجزون الغرفات وهي العلالي في الجنة، فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس، والدليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧ ﴾ سبأ: ٣٧، وقراءة من قرأ: في ﴿ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرهم على الطاعات، وعن الشهوات، وعن أذى الكفار ومجاهدتهم، وعلى الفقير وغير ذلك، وإطلاقه لأجل الشياع في كل مصبور عليه، وقرئ: "يلقون "، كقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ ﴾ الإنسان: ١١ ويلقون، كقوله ﷻ: ﴿ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ ﴾ الفرقان: ٦٨، والتحية: دعاء بالتعمير، والسلام: دعاء بالسلامة، يعني أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة، لما وصف عبادة العباد، وعدد صالحاتهم وحسناتهم، وأثنى عليهم من أجلها، ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة: أتبع ذلك بيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ووعدهم ما وعدهم، لأجل عبادتهم، فأمر رسوله ﷺ أن يصرح للناس، ويجزم لهم القول بأن الاكتراث لهم عند ربهم ﷻ، إنما هذه للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيء يبالى



به، والدعاء: العبادة، و ﴿ مَا ﴾ متضمنة لمعنى الاستفهام، وهي في محل النصب، وهي عبارة عن المصدر، كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم، يعني أنكم لا تستأهلون شيئاً من العبء بكم لولا عبادتكم، وحقيقة قولهم ما عبأت به: ما اعتددت به من فوادح همومي ومما يكون عبثاً علي، كما تقول: ما اكترثت له، أي: ما اعتددت به من كوارثي ومما يهمني، وقال الزجاج في تأويل ﴿ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى ﴾ أي وزن يكون لكم عنده؟ ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ نافية، ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا عبادتهم، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار، ونظيره في الكلام أن يقول الملك لمن استعصى عليه: إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري، فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك، وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام، وقيل : ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آله، فإن قلت: إلى من يتوجه هذا الخطاب؟ قلت: إلى الناس على الإطلاق، ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون، فخوطبوا بما وجدوا في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرئ: "فقد كذب الكافرون "، وقيل: يكون العذاب لزاماً"[1]

يقول البيضاوي: "﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ ﴾ أعلى مواضع الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله ﷻ: ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ سبأ: ٣٧، وللقراءة بها، وقيل هي من أسماء الجنة، ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرهم على المشاق من

[1] الكشاف للزمخشري (3/ 296 – 297).



مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات، ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ دعاء بالتعمير والسلامة أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، أو تبقية دائمة وسلامة من كل آفة، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر (يلقون) من لقي، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون، ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ مقابل ﴿ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ معنى ومثله إعراباً، ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي ﴾ ما يصنع بكم من عبأت الجيش إذا هيأته أو لا يعتد بكم، ﴿ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ لولا عبادتكم فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء، وقيل معناه ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ﴿ مَا ﴾ إن جعلت استفهامية فمحلها النصب على المصدر كأنه قيل: أي عبء يعبأ بكم، ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ بما أخبرتكم به حيث خالفتموه، وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم: كذب القتال إذا لم يبالغ فيه، وقرئ "فقد كذب الكافرون" أي الكافرون منكم لأن توجه الخطاب إلى الناس عامة بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يكون جزاء التكذيب لازماً يحيق بكم لا محالة، أو أثره لازماً بكم حتى يكبكم في النار، وإنما أضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيه على أنه لا يكتنهه الوصف، وقيل المراد قتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لزاماً، وقرئ "لزاماً" بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت"[1]

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 132).





قال الرازي: "واعلم أنه ﷻ لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك أنواع إحسانه إليهم، وهي مجموعة في أمرين؛ المنافع والتعظيم، أما المنافع فهي قوله ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ والمراد أولئك يجزون الغرفات، والدليل عليه قوله ﷻ: ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ ﴾ سبأ: ٣٧، وقال ﷻ: ﴿ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ ٢٠ ﴾ الزمر: ٢٠، والغرفة في اللغة العلية، وكل بناء عال فهو غرفة، والمراد به الدرجات العالية، وقال المفسرون: الغرفة اسم الجنة، فالمعنى: يجزون الجنة، وهي جنات كثيرة، وقرأ بعضهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ ﴾ وقوله ﷻ: ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ فيه بحثان:

البحث الأول: احتج بالآية من ذهب إلى أن الجنة بالاستحقاق، فقال: الباء في قوله ﷻ: ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ تدل على ذلك، ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك.

البحث الثاني: ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه، ليعم كل نوع، فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال في معرفة الله ﷻ، وعلى مشاق الطاعات، وعلى مشاق ترك الشهوات، وعلى مشاق أذى المشركين، وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس، فلا وجه لقول من يقول: المراد الصبر على الفقر خاصة؛ لأن هذه الصفات إذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر.

وثانيهما التعظيم: وهو قوله ﷻ: ﴿ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ قرئ: "يلقون"؛ كقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ ﴾ الإنسان: ١١، و "يلقون" كقوله



سبحانه وتعالى: ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ الفرقان: ٦٨، والتحية: الدعاء بالتعمير، والسلام: الدعاء بالسلامة، فيرجع حاصل التحية إلى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع، ويرجع السلام إلى كون ذلك النعيم خالصاً عن شوائب الضرر، ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله سبحانه وتعالى؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ يس: ٥٨، ويمكن أن يكون من الملائكة ؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرعد: ٢٣ - ٢٤، ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض، أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ فالمراد أنه سبحانه وتعالى لما وعد بالمنافع أولاً وبالتعظيم ثانياً، بين أن من صفتهما الدوام، وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ، ومن صفتهما الخلوص أيضاً، وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، وهذا في مقابلة قوله سبحانه وتعالى:﴿ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي: ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا، أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ فاعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح صفات المتقين، وشرح حال ثوابهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ فدل بذلك على أنه سبحانه وتعالى غني عن عبادتهم، وأنه سبحانه وتعالى إنما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم، وفيه مسائل:



المسألة الأولى: قال الخليل: ما أعبأ بفلان؛ أي: ما أصنع به، كأنه يستقله ويستحقره، وقال أبو عبيدة: ما أعبأ به؛ أي: وجوده وعدمه عندي سواء، وقال الزجاج: معناه أي: لا وزن لكم عند ربكم ﷻ، والعبء في اللغة: الثقل، وقال أبو عمرو بن العلاء: ما يبالي بكم ربي.

المسألة الثانية: في ﴿ مَا ﴾ قولان:

أحدهما: أنها متضمنة لمعنى الاستفهام، وهي في محل النصب، وهي عبارة عن المصدر، كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم.

والثاني: أن تكون ما نافية.

المسألة الثالثة: ذكروا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ وجهين:

أحدهما: لولا دعاؤه إياكم إلى الدين، والطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف إلى المفعول.

وثانيهما: أن الدعاء مضاف إلى الفاعل، وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوها:

أحدها: لولا دعاؤكم: لولا إيمانكم.

وثانيها: لولا عبادتكم.

وثالثها: لولا دعاؤكم إياه في الشدائد؛ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ ﴿٦٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٦٥

ورابعها: دعاؤكم يعني لولا شكركم له على إحسانه؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴿١٤٧﴾ ﴾ النساء: ١٤٧



وخامسها: ما خلقتكم وبي إليكم حاجة إلا أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم.

أما قوله ﷻ: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ ﴾ فالمعنى أني إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم، وهو عقاب الآخر، ونظيره أن يقول الملك لمن استعصى عليه: إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني، وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك، فإن قيل: إلى من يتوجه هذا الخطاب؟ قلنا: إلى الناس على الإطلاق، ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون، فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرئ: "فقد كذب الكافرون فسوف يكون العذاب لزاماً"، وقرئ: "لزاماً" بالفتح بمعنى اللزوم، كالثبات والثبوت، والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعدما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام ويتناول ما لا يحيط به الوصف، ثم قيل: هذا العذاب في الآخرة، وقيل: كان يوم بدر"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، والأقوال والأفعال الحميدة يجزون يوم القيامة الغرفة أي الغرفات لقوله ﷻ:"﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ ﴾ سبأ: ٣٧، وهي المنازل العالية، والدرجات الرفيعة في الجنان، بصبرهم على القيام بها، ويلقون في الجنة تحية وسلاماً، أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويعاملون بالتوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، كما

[1] التفسير الكبير للرازي (24/ 487 – 489)



قال ﷻ:" ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرعد: ٢٣ ـ ٢٤

ومفاد الآية أن الطائعين في نعيم الجنة مع التعظيم والاحترام، على عكس العصاة الذين يضاعف لهم العذاب، مع الإهانة والاحتقار.

قال ﷻ: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾، أي إن نعيمهم دائم لا ينقطع، فهم مقيمون في الجنان إقامة مستمرة لا يحوّلون ولا يموتون ولا يزولون عنها، ولا يبغون عنها حولاً، وحسنت منظراً، وطابت مقيلاً ومنزلاً، كما قال ﷻ:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ ﴾ هود: ١٠٨، إن الله ﷻ وعد عباد الرحمن بالمنافع الجلي في الجنة أولاً، وبالتعظيم ثانياً، ثم بيَّن أن صفتهما الدوام والخلوص أيضاً.

قال ﷻ: ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ ﴾ أي إن الله ﷻ غني عن عباده، وإنما كلفهم لينتفعوا، وعذبهم لعصيانهم، فلا يبالي بهم ولا يكترث إذا لم يؤمنوا به ولم يعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرةً وأصيلاً، كما قال ﷻ:﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦

قال ﷻ:﴿ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾ أي إنكم أيها الكافرون والعصاة إذا كذبتم رسلي، ولم تؤمنوا بلقائي، فسوف يكون تكذيبكم سبباً ملازماً ومؤدياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، كما قال ﷻ:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي





ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ هود: ١٠٦ – ١٠٧"[1]

ويقول صاحب الظلال: "والغرفة ربما كان المقصود بها الجنة، أو المكان الخاص في الجنة، كما أن الغرفة أكرم البهو فيما اعتاد الناس في البيوت في هذه الأرض، عندما يستقبلون الأضياف، وأولئك الكرام الذين سبقت صفاتهم وسماتهم، يستقبلون في الغرفة بالتحية والسلام، جزاء ما صبروا على تلك الصفات والسمات، وهو تعبير ذو دلالة، فهذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس، ومغريات الحياة، ودوافع السقوط، والاستقامة جهد لا يقدر عليه إلا بالصبر. الصبر الذي يستحق أن يذكره الله ﷻ في هذا الفرقان، يجزيهم الله ﷻ الجنة فلا مخرج لهم إلا أن يشاء الله ﷻ، وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام"[2]

يبين الله ﷻ في هذه الآية جزاء عباد الرحمن المتصفين بالصفات الجليلة التي سبق ذكرها، حيث إن الله ﷻ يجازيهم على صبرهم وطاعتهم له بالجنة فتتلقاهم الملائكة بالترحيب والاحترام والتحية والسلام.

يقول المنصوري: "﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الفضائل الجليلة والصفات النبيلة ﴿ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ ﴾ الغرفة الدرجة العالية من المنازل، أي يثابون أعلى منازل الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله ﷻ:﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ سبأ: ٣٧، ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي بصبرهم على المشاق من

[1] التفسير المنير للزحيلي (10/ 124)

[2] في ظلال القرآن/ سيد قطب (5/ 2581- 2582)





مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات، ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ من جهة الملائكة ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ أي تحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات ويمكن أن يكون السلام من الله ﷻ"[1]

يقول السعدي: "لما كانت هممهم ومطالبهم عالية كان الجزاء من جنس العمل فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا كما قال ﷻ: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرعد: ٢٣ - ٢٤ ولهذا قال هنا: ﴿ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ من ربهم ﷷ ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله ﷻ وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار والتضرع لربهم ﷷ أن ينجيهم منها وإخراج الواجب والمستحب في النفقات والاقتصاد في ذلك – وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى– والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله ﷻ في عبادته والعفة عن الدماء والأعراض والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون

[1] المقتطف (4/ 40).





مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها بأنفسهم وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله ﷻ بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله ﷻ بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم؛ لأن من حرص على شيء ودعا الله ﷻ فيه لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ﷻ ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصديقية.

فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس وأطهر تلك القلوب وأصفى هؤلاء الصفوة وأتقى هؤلاء السادة، ولله، فضل الله ﷻ عليهم ونعمته ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل، ولله، منة الله ﷻ على عباده أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي من عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

ولما كان الله ﷻ قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم ربما توهم متوهم أنه وأيضاً غيرهم فلم لا يدخل في العبودية؟ فأخبر ﷻ أنه لا يبالي ولا يعبأ بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ





﴿ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي: عذاباً يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله ﷻ بينكم وبين عباده المؤمنين"[1]

قال البقاعي: "ولما وصف ﷻ عباده المؤمنين بضد أوصاف الكافرين من الرفق والسكينة، والتواضع والحلم والطمأنينة والشكر لربهم ﷻ والرغبة إليه والرهبة منه.

وقال الرازي: فوصف مشيهم وخطابهم وانتصابهم له ودعاءهم ونفقاتهم ونزاهتهم وتيقظهم وانتباههم وصدقهم ومحبتهم ونصحهم، تشوف السامع إلى ما لهم عنده بعد المعرفة بما للكافرين، فابتدأ الخبر عن ذلك بتعظيم شأنهم فقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ أي العالو الرتبة، العظيمو المنزلة، ولما كان المقصود إنما هو الجزاء، بني للمفعول قوله:

﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ أي فضلاً من الله ﷻ على ما وفقهم له من هذه الأعمال الزاكية، والأحوال الصافية ، ﴿ ٱلْغُرْفَةَ ﴾ أي التي هي لعلوها واتساعها وطيبها لا غرفة غيرها، لأنها منتهى الطلب، وغاية الأرب، لا يبغون عنها حولاً، ولا يريدون بها بدلاً، وهي كل بناء عال مرتفع، والظاهر أن المراد بها الجنس.

ولما كانت الغرب في غاية التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن، رغب فيها بأن جعلها سبباً لهذا الجزاء فقال: ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي أوقعوا الصبر على أمر ربهم ﷻ ومرارة غربتهم بين الجاهلين في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم، وغير ذلك من معاني جلالهم.

---

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 587





ولما كان المنزل لا يطيب إلا بالكرامة والسلامة، قال: ﴿ وَيُلَقَّوْنَ ﴾ أي يجعلهم الله ﷻ لاقين بأيسر أمر؛ وعلى قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم بالتخفيف والبناء للفاعل والأمر واضح، ﴿ فِيهَا تَحِيَّةً ﴾ أي دعاء بالحياة من بعضهم لبعض، ومن الملائكة الذين لا يرد دعاؤهم، ولا يمترى في إخبارهم، لأنهم عن الله ﷻ ينطقون، وذلك على وجه الإكرام والإعظام مكان ما أهانهم عباد الشيطان ﴿ وَسَلَامًا ﴾ أي من الله ﷻ ومن الملائكة وغيرهم، وسلامة من كل آفة مكان ما أصابوهم بالمصائب، ولما كان هذا ناطقاً بدوام حياتهم سالمين بصريحه، وبعظيم شرفهم بلازمه، دل على أنهم لا يبرحون عنه بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي الغرفة مكان ما أزعجوهم من ديارهم حتى هاجروا؛ ودل على علو أمرها، وعظيم قدرها، بإبراز مدحها في مظهر التعجب فقال: ﴿ حَسُنَتْ ﴾ أي ما أحسنها ﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾ أي موضع استقرار ﴿ وَمُقَامًا ﴾ أي موضع إقامة.

ولما ثبت أمر الرحمانية، فظهر أمر الرحمن ﷻ وما عليه عباده من الدعاء الذي هو الخضوع والإخلاص، وختم أوصافهم الحسنة بالدعاء حقيقة الدال على الإخلاص في الخضوع، وذكر حسن جزائهم وكريم منقلبهم، أمر النذير أن يقول لعباد الشيطان الذين تكبروا عن السجود للرحمن، وعن الاعتراف والإيمان، ليرجعوا عن العصيان، ويزداد المؤمنون في الطاعات والإيمان: إن ربه ﷻ لا يعتد بمن لا يدعوه، فمن ترك دعاءه فليرتقب العذاب الدائم، فقال: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا ﴾ أي يعتد ويبالي ويجعلكم ممن يسد به في موضع التعبئة الآن – على أن "ما" نافية بكم أي أيها الكافرون ربي





أي المحسن إلي وإليكم برحمانيته، المخصص لي بالإحسان برحيميته، وإنما خصه بالإضافة لاعترافه دونهم ﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ أي نداؤكم له في وقت شدائدكم الذي أنتم تبادرون إليه فيه خضوعاً له به لينجيكم، فإذا فعلتم ذلك أنقذكم مما أنتم فيه، معاملة لكم معاملة من يبالي بالإنسان ويعتد به ويراعيه، ولولا دعاؤه إياكم لتعبدوه رحمة لكم لتزكوا أنفسكم وتصفوا أعمالكم ولا تكونوا حطباً للنار ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي فتسبب عن ذلك لسوء طباعكم ضد ما كان ينبغي لكم من الشكر والخير بأن عقبتم بالإنجاء وحققتم وقرنتم التكذيب بالرحمن ﷻ بعد رحمتكم بالبيان مع ضعفكم وعجزكم، وتركتم ذلك الدعاء له وعبدتم الأوثان، وادعيتم له الولد وغيره من البهتان، أو ما يعتد بكم شيئاً من الاعتداد لولا دعاؤكم إياه وقت الشدائد، فهو يعتد بكم لأجله نوع اعتداد، وهو المدة التي ضربها لكم في الدنيا لا غيرها، بسبب أنكم قد كذبتم، أو ما يصنع بكم لولا دعاؤه إياكم إلى طاعته، لأنكم قد كذبتم، فكنتم شراً من البهائم، فدعاكم فتسبب عن دعائه إياكم أنكم فاجأتم الداعي بالتكذيب، والحاصل أنه ليس فيكم الآن ما يصلح أن يعتد بكم لأجله إلا الدعاء، لأنكم مكذبون، وإنما قلت: "الآن" لأن "ما" لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال، عكس "لا" ﴿ فَسَوْفَ ﴾ أي فتسبب عن تكذيبكم أنه يجازيكم على ذلك، ولكنه مع قوته وقدرته واختياره لا يعاجلكم، بل يكون جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضربه لكم من الآجال، وكل بعيد عندكم قريب عنده، وكل آت قريب، فتهيؤوا واعتدوا لذلك اليوم ﴿ لِزَامًا ﴾ أي لازماً لكم لزوماً عظيماً لا انفكاك له عنكم بحال، وهذا تنبيه على ضعفهم وعجزهم، وذلهم وقهرهم، لأن الملزوم لا يكون إلا كذلك، فأسرهم يوم





بدر من أفراد هذا التهديد، فقد انطبق آخر السورة على أولها بالإنذار بالفرقان، لمن أنكر حقيقة الرحمن ﷻ"[1]

قال ابن عاشور: "التصدير باسم الإشارة للتنبيه على أن ما يرد بعده كانوا أحرياء به لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة، وتلك مجموع إحدى عشرة خصلة وهي: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف، وترك الإقتار، والتنزه عن الشرك، وترك الزنا، وترك قتل النفس، والتوبة، وترك الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول دعوة الحق، وإظهار الاحتياج إلى الله ﷻ بالدعاء، واسم الإشارة هو الخبر عن قوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ كما تقدم على أرجح الوجهين.

والغرفة: البيت المعتلي يصعد إليه بدرج وهو أعز منزلاً من البيت الأرضي، والتعريف في الغرفة تعريف الجنس فيستوي فيه المفرد والجمع مثل قوله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الحديد: ٢٥، فالمعنى: يجزون الغرف، أي من الجنة، قال ﷻ: ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ سبأ: ٣٧، والباء للسببية، و (ما) مصدرية في قوله ﷻ: ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي: بصبرهم وهو صبرهم على ما لقوا من المشركين من أذى، وصبرهم على كبح شهواتهم لأجل إقامة شرائع الإسلام، وصبرهم على مشقة الطاعات.

وقرأ الجمهور (ويلقون) بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة مضارع لقاه إذا جعله لاقياً، وقرأه حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم وخلف (ويلقون) بفتح الياء

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 435 – 439).





وسكون اللام وتخفيف القاف المفتوحة مضارع لقي، واللقي واللقاء: استقبال شيء ومصادفته، وتقدم في قوله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ٢٢٣﴾ البقرة: ٢٢٣، وفي قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ الأنفال: ١٥، وفي قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ الفرقان: ٦٨، وقد استعير اللقي لسماع التحية والسلام، أي أنهم يسمعون ذلك في الجنة من غير أن يدخلوا على بأس أو يدخل عليهم بأس، بل هم مصادفون تحية إكرام وثناء مثل تحيات العظماء والملوك التي يرتلها الشعراء والمنشدون، ويجوز أن يكون إطلاق اللقي لسماع ألفاظ التحية والسلام لأجل الإيماء إلى أنهم يسمعون التحية من الملائكة يلقونهم بها، فهو مجاز بالحذف، قال ﷻ: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ الأنبياء: ١٠٣، وقوله ﷻ: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ هو ضد ما قيل في المشركين ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ والتحية تقدمت في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ ٨٦﴾ النساء: ٨٦، وفي قوله ﷻ: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ يونس: ١٠، وقوله ﷻ: ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ ٦١﴾ النور: ٦١، لما استوعبت السورة أغراض التنويه بالرسالة والقرآن، وما تضمنته من توحيد الله ﷻ، ومن صفة كبرياء المعاندين وتعللاتهم، وأحوال المؤمنين،



وأقيمت الحجج الدامغة للمعرضين، ختمت بأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يزال بها غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وحسبانهم أنهم قد شفوا غليلهم من الرسول ﷺ بالإعراض عن دعوته وتوركهم في مجادلته؛ فبين لهم حقارتهم عند الله ﷻ، وأنه ما بعث إليهم رسوله ﷺ وخاطبهم بكتابه إلا رحمة منه بهم لإصلاح حالهم وقطعاً لعذرهم فإذ كذبوا فسوف يحل بهم العذاب.

و ﴿ مَا ﴾ ن قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا يَعۡبَؤُاْ ﴾ نافية، وتركيب: ما يعبأ به ، يدل على التحقير وضده عبأ به يفيد الحفاوة، ومعنى ﴿ مَا يَعۡبَؤُاْ ﴾: ما يبالي وما يهتم، وهو مضارع عبأ مثل: ملأ يملأ مشتق من العبء بكسر العين وهو الحمل بكسر الحاء وسكون الميم، أي الشيء الثقيل الذي يحمل على البعير ولذلك يطلق العبء على العدل بكسر فسكون، ثم تشعبت عن هذا إطلاقات كثيرة، فأصل ﴿ مَا يَعۡبَؤُاْ ﴾: ما يحمل عبئاً، تمثيلاً بحالة المتعب من الشيء، فصار المقصود: ما يهتم وما يكترث، وهو كناية عن قلة العناية، والباء فيه للسببية، أي بسببكم وهو على حذف مضاف يدل عليه مقام الكلام، فالتقدير هنا: ما يعبأ بخطابكم.

والدعاء: الدعوة إلى شيء، وهو هنا مضاف إلى مفعوله، والفاعل يدل عليه ﴿ رَبِّي ﴾ أي: لولا دعاؤه إياكم، أي: لولا أنه يدعوكم، وحذف متعلق الدعاء لظهوره من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ ﴾ أي: الداعي وهو محمد ﷺ، فتعين أن الدعاء الدعوة إلى الإسلام، والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى لا يلحقه من ذلك انتفاع ولا اعتزاز بكم، وهذا كقوله





ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦ - ٥٧، وضمير الخطاب في قوله ﷻ:

﴿ دُعَآؤُكُمْ ﴾موجه إلى المشركين بدليل تفريع ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ عليه وهو تهديد لهم، أي: فقد كذبتم الداعي وهو الرسول ﷺ، وهذا التفسير هو الذي يقتضيه المعنى، ويؤيده قول مجاهد والكلبي والفراء وقد فسر بعض المفسرين الدعاء بالعبادة فجعلوا الخطاب موجهاً إلى المسلمين فترتب على ذلك التفسير تكلفات وقد أغنى عن التعرض إليها اعتماد المعنى الصحيح فمن شاء فلينظرها بتأمل ليعلم أنها لا داعي إليها، وتفريع ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ على قوله ﷻ: ﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ والتقدير: فقد دعاكم إلى الإسلام فكذبتم الذي دعاكم على لسانه.

والضمير في ﴿ يَكُونُ ﴾ عائد إلى التكذيب المأخوذ من ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾ ، أي سوف يكون تكذيبهم لزاماً لكم، أي لازماً لا انفكاك لكم منه، وهذا تهديد بعواقب التكذيب تهديداً مهولاً بما فيه من الإبهام كما تقول للجاني: قد جعلت كذا فسوف تتحمل ما فعلت، ودخل في هذا الوعيد ما يحل بهم في الدنيا من قتل وأسر وهزيمة وما يحل بهم في الآخرة من العذاب.

واللزام: مصدر لازم، وقد صيغ على زنة المفاعلة لإفادة اللزوم، أي عدم المفارقة، قال ﷻ: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ طه: ١٢٩، والضمير المستتر في (كان) عائد إلى عذاب الآخرة في قوله ﷻ: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ طه: ١٢٧، فالإخبار باللزام من باب الإخبار بالمصدر للمبالغة، وقد





اجتمع فيه مبالغتان: مبالغة في صيغته تفيد قوة لزومه، ومبالغة في الإخبار به تفيد تحقيق ثبوت الوصف، وعن ابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما: "اللزام: عذاب يوم بدر، ومرادهما بذلك أنه جزئي من جزيئات اللزام الموعود لهم، ولعل ذلك شاع حتى صار اللزام كالعلم بالغلبة على يوم بدر، وفي الصحيح عن ابن مسعود ﵁: "خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام"، يعني أن اللزام غير عذاب الآخرة"[1]

قال القاسمي: "﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى المتصفين بما ذكر، خبر لعباد الرحمن أو مبتدأ خبره: ﴿ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي: على مشاق المجاهدات في الدعوة إلى الخيرات، والدأب على الخيرات، واجتناب المحظورات، **والغرفة** الدرجة العليا من المنازل في الجنة، ﴿ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ أي: تحييهم الملائكة وتسلم عليهم، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، والقصد أنهم يلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ لسلامة أهلها عن الآفات، وخلودهم أبد الآباد، ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ ﴾ أي: لا يبالي بكم ولا يبقيكم إلا إذا عبدتموه وآمنتم به وحده، فالدعاء بمعنى العبادة ، كما مر، ثم أشار إلى أنه كيف يمكن العبء بهم، أو يتصور، وقد وجد منهم ما ينافيه، بقوله ﷻ: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ ﴾ أي: بما جاءكم من الحق، أي: وقد تلي عليكم سنة من كذب وأصر، ﴿ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾

[1] التحرير والتنوير (19/ 84 – 87)





اللزام: مصدر مؤول باسم الفاعل أتى به للمبالغة، أي: فسوف يكون هذا النبأ أو الذكر الحكيم، أو الأمر الجليل، أمر الرسالة، لازماً وثابتاً، يفتح من الحق رتاجاً، وتدخل الناس في دين الله ﷻ أفواجاً"[1]

يقول أبو السعود: "﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى المتصفين بما فصل في حين صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ خبره قوله ﷻ: ﴿ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ ﴾ والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبينة لما لهم في الآخرة من السعادة الأبدية إثر بيان ما لهم في الدنيا من الأعمال السنية، **والغرفة:** الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال، أي: يثابون أعلى منازل الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله ﷻ: ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ ﴾ سبأ: ٣٧، وقيل: هي اسم من أسماء الجنة، ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي: بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات ويلقون فيها من جهة الملائكة ﴿ تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ أي: يحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات، أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة، وقيل: يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، وقرئ: ﴿ وَيُلَقَّوۡنَ ﴾ من لقي، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يموتون ولا يخرجون ﴿ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾

[1] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 446)





الكلام فيه كالذي مر في مقابله، ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾

قل أمر رسول الله ﷺ بأن يبين للناس أن الفائزون بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلاً، أي: قل لهم كافة مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر ﴿ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ أي: أي عبء يعبأ بكم، وأي اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له سبحانه وتعالى حسبما مر تفصيله، فإن ما خلق له الإنسان معرفته سبحانه وتعالى وطاعته وإلا فهو وسائر البهائم سواء، وقال الزجاج: معناه: أي وزن يكون لكم عنده، وقيل: معناه: ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام، وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة، ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ نافية، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما أن ما قبله بيان لحال المؤمنين منهم، أي: فقد كذبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيها الكفرة ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين، وقيل: فقد قصرتم في العبادة من قولهم: كذب القتال: إذا لم يبالغ فيه، وقرئ: "فقد كذب الكافرون" أي: الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين، وفائدته الإيذان بأن مناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسي المصحح للاشتراك في الفوز ليس إلا اختلافهما في الأعمال، ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾ أي: يكون جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيق بكم لا محالة حتى يكبكم في النار، كما تعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها، وإنما أضمر من غير ذكر للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره، وللتنبيه





على أنه مما لا يكتنهه البيان، وقيل: يكون العذاب لزاماً، وعن رسول الله ﷺ: "من قرأ سورة الفرقان لقي الله ﷻ وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب"[1]

يقول الطنطاوي: " لقد بين ﷻ ما أعده لهم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦ ﴾ والغرفة في الأصل: كل بناء مرتفع، والجمع غرف وغرفات كما في قوله ﷻ: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠ ﴾ الزمر: ٢٠، وقوله ﷻ: ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ ﴾ سبأ: ٣٧، والمراد بها هنا: أعلى منازل الجنة أو الجنة نفسها أو جنسها الصادق بغرف كثيرة.

أي: أولئك المتقون المتصفون بالصفات السابقة، يجازيهم الله ﷻ بأعلى المنازل والدرجات في الجنة، بسبب صبرهم على طاعته، وبعدهم عن معصيته ويلقون في تلك المنازل الرفيعة ﴿ تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ عن ربهم ﷻ ومن ملائكته الكرام، ومن بعضهم لبعض، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: في تلك المنازل الرفيعة، والجنات العالية، خلوداً أبدياً، ﴿ حَسُنَتۡ ﴾ تلك الغرفة والمنزلة ﴿ مُسۡتَقَرّٗا ﴾ يستقرون فيه ﴿ وَمُقَامٗا ﴾ قيمون فيه وذلك في مقابل ما أعد للكافرين من نار ﴿ سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 231 -232)





ثم ختم ﷻ السورة الكريمة بقوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾

قال القرطبي: يقال: ما عبأت بفلان، أي: ما باليت به، أي: ما كان له عندي وزن ولا قدر، وأصل يعبأ: من العبء وهو الثقل؛ فالعبء: الحمل الثقيل، والجمع أعباء.

و ﴿ مَا ﴾ استفهامية، وليس يبعد أن تكون نافية، لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفى خرج مخرج الاستفهام، وحقيقة القول عندي أن موضع ﴿ مَا ﴾ نصب والتقدير أي عبء يعبأ بكم ربي؟ أي: مبالاة يبالى بكم ربي لولا دعاؤكم.

هذا، وللعلماء في تفسير هذه الآية أقوال منها: أن قوله ﷻ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ خطاب للمؤمنين أو للناس جميعاً، وأن المصدر وهو ﴿ دُعَآؤُكُمْ ﴾ مضاف لفاعله، وأن بقية الآية وهي قوله ﷻ: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ خطاب للكافرين، والمعنى على هذا القول: قل أيها الرسول الكريم للمؤمنين أو للناس جميعاً، أي اعتداد لكم عند ربكم ﷻ ﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ أي: لولا عبادتكم له ﷻ أي: لولا إخلاصكم العبادة له لما اعتد بكم، ثم أفرد الكافرين بالخطاب فقال: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي: فسوف يكون جزاء التكذيب ﴿ لِزَامًا ﴾

أي: عذاباً دائماً ملازماً لكم، فلزاماً مصدر لازم، كقاتل قتالاً، والمراد به هنا اسم الفاعل.



ومن العلماء من يرى أن الخطاب في الآية للكافرين، وأن المصدر مضاف لمفعوله، فيكون المعنى: قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الكافرين، ما يعبأ بكم ربي، ولا يكترث لوجودكم، لولا دعاؤه إياكم على لساني، إلى توحيده وإخلاص العبادة له، وبما أنى قد دعوتكم فكذبتم دعوتي، فسوف يكون عاقبة ذلك ملازمة العذاب لكم"[1]

يقول ابن عثيمين: "لما كانت هممهم ومطالبهم عالية كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهي وتلذه الأعين وذلك بسبب صبرهم، نالوا ما نالوا، كما قال ﷻ: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرعد: ٢٣ ــ ٢٤

ولهذا قال هنا: ﴿ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ الفرقان: ٧٥، من ربهم ﷻ، ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات، ثم أخبر أنه لا يبالي ولا يعبأ بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال: ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾ ﴾ الفرقان: ٧٧، أي عذاباً يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله ﷻ بينكم وبين عباده المؤمنين"[2]

"بعد الحديث عن صفات عباد الرحمن بيَّن الله ﷻ جزاءهم، فهو يثيبهم على ما اتَّصفوا به من الصِّفات الفاضلة، وجاهدوا به أنفسهم، وصبروا على التَّكاليف، وثوابهم

---

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 222 – 224).
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 27- 28)



هو دخولهم الغرفة في أعلى منازل الجنة وأفضلها وأكرمها، وليست الغرفة في الجنَّة غرفة واحدة، ولكنَّها غرف من فوق غرف مبنيَّة، وهم آمنون منعَّمون في تلك الغرفات، في أعلى الجنَّات، خالدون في ذلك النَّعيم المقيم، شاكرون لله عز وجل على ما أكرمهم به، من مقام كريم، واستقرار آمن، وتتلقَّاهم الملائكة بالتَّحية والتكريم، وتدخل عليهم من كلِّ باب، تقول لهم: سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدَّار، قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾ يأمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصارح الكفَّار قائلاً: الله عز وجل لا يعبأ ولا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تؤمنوا به وتعبدوه وتدعوه متضرِّعين له، كما يأمره أن يهدِّدهم بالعذاب إن استمروا على الكفر والتَّكذيب؛ لأنَّ العذاب ملازم لكل كافر مكذِّب، لا يفارقه ولا يتوقَّف عنه، فهو مخلَّد في نار جهنَّم، لا يموت فيها ولا يخرج منها"[1]

ويقول ابن عثيمين: "والحاصل أن الله سبحانه وتعالى وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له ولعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم عز وجل أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك، وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق، الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى، والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله عز وجل في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك, وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية، التي لا خير فيها، وذلك يستلزم

[1] التفسير المنهجي (7/ 65)





مروءتهم وإنسانيتهم، وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله ﷻ بالقبول لها، والتفهم لمعانيها، والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله ﷻ بأكمل الدعاء في الدعاء الذي ينتفعون به وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون، من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم؛ لأن من حرص على شيء ودعا الله ﷻ فيه، لابد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ﷻ ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصديقية.

فلله ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة.

ولله فضل الله ﷻ عليهم ونعمته ورحمته التي جللتهم ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل، ولله منَّة الله ﷻ على عباده، أن بين لهم أوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي مَنَّ عليهم، وأكرمهم، الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

ولما كان الله ﷻ قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته، واختصهم بعبوديته، لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم أنه وأيضاً غيرهم، فلم لا يدخل في العبودية.

فأخبر ﷻ أنه لا يبالي ولا يعبأ بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال ﷻ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ





فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ الفرقان: ٧٧، أي عذاباً يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله سبحانه وتعالى بينكم وبين عباده المؤمنين"[1]

[1] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (6/ 28- 29)





الخلاصة

عباد الرحمن، ويا لها من صفةٍ عظيمةٍ يتمنى كل مؤمنٍ بالله عَزَّ وَجَلَّ أن يتصف بها، وأن يكون عبداً لله عَزَّ وَجَلَّ، الذين ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في محكم التنزيل، وخصهم بأروع الصفات وأجملها، وذلك في أكثر من سورةٍ وآية، حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣، فهم الذين يمشون بهدوءٍ وسكينةٍ ووقار، لا يمشون بتكبرٍ واستعلاء، بل بتواضعٍ وحُسن، وهم الذين يُعرضون عن الجاهلين الذين يتعمدون إيذاءهم، ولا يقابلون السيئة بمثلها، وإنما يقابلون السيئة بالحسنة، ويبتغون بهذا وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

عباد الرحمن هم سيد من اتصف بالصفات الحسنة التي يفتخر بها كل من يملكها، فهم كثيرو الصلاة في الليل، ويا لها من روحانيةٍ عظيمةٍ أن يكون قلب العبد معلقٌ بالسجودِ، وهم يُخلصون العبادة لله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يُراؤون في عبادتهم؛ لأنهم لا يبتغون من عبادتهم الظهور والمدح، بل يتذللون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنيةٍ صافيةٍ وخالصة، وهذه قمة الإيمان، ويخشون عذاب جهنم، لذلك هم دائمو الدعاء لله عَزَّ وَجَلَّ بأن يصرف عذابها الشديد عنهم، ودعاؤهم مليءٌ بحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنهم يعرفون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حقاً، ويتعوذون من النار أن تكون دارهم ومستقرهم، فيا لها من صفاتٍ رائعة، وأخلاقٍ حميدة لا تنبغي لأي أحدٍ إلا لعباد الرحمن.

عباد الرحمن جامعون لمحاسن الأخلاق من كل حدبٍ وصوب، فهم معتدلو الإنفاق، وبعيدون كل البعد عن البُخل والتبذير، وخصوصاً فيما يتعلق بالنفقات المستحبة والواجبة التي يأمر بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده المؤمنين، كما أنهم لا يبذرون ولا يُسرفون كي لا





يُشابهوا بهذا الشيطان، ويكونون بين هذا وهذا، وهم أيضاً بريئون من الشرك، ولا يدعون مع الله ﷻ أحداً، بل يتضرعون إلى الواحد الأحد ﷻ فقط، ويتجنبون سفك الدم الحرام، ويحافظون على سترهم، فلا يكشفون عوراتهم ويترفعون عن فعل الفواحش، ويحافظون على عفتهم وطهارتهم، فأي صفاتٍ أجمل وأجلّ وأرفع من هذه الصفات!.

عباد الرحمن هم أكثر الناس بعداً عن الباطل في القول أو في الفعل، ولا يمرون باللغو من الكلام، ولا يتحدثون بالكلام الذي لا فائدة مرجوة منه، ولا يخوضون في حديثٍ لا فائدة دينية أو دنيوية فيه؛ لأنهم أكبر من أن يندفعوا لمثل هذه الأمور التي تتعلق بالسفهاء، وإذا حدث وذكرت أمامهم آيات الله ﷻ، قابلوها بالاستحسان والانقياد والقبول والتسليم المطلق؛ لأن إيمانهم بالله ﷻ مطلقٌ وحتمي، فتستمع آذانهم لها، وتخضع قلوبهم لها أيضاً، فيسمعونها بوعيٍ وفهمٍ، حتى يزداد اليقين لديهم أكثر، ويعبدون الله ﷻ أكثر.

عباد الرحمن لا ينشغلون بإصلاح أنفسهم فقط، بل يُصلحون الآخرين قدر الإمكان، ويحاولون أن يكونوا محضر خيرٍ للأهل والأصحاب والذرية والأقرباء، فيا لها من صفاتٍ عظيمةٍ خصّ الله ﷻ بها صفوة من عباده، ونسبهم إلى نفسه بأن أسماهم عباد الرحمن، ونسأل الله ﷻ العظيم أن يجعلنا منهم، متصفين بصفاتهم.

فيما يأتي الصفات التي حثّت عليها الآيات الكريمة:

أولاً: التّواضع في المشي: هذه الصفة الأولى لصفات عباد الرحمن، يمشون على الأرض بتواضع دون تكلّف، ولا تصنُّع ولا خيلاء، فتظهر نفسهم المطمئنة الساكنة





من خلال مشيهم الوقور الساكن والقوي بالوقت ذاته، دون تذلل أو انكسار أو تنكيس الرؤوس.

ثانياً: الترفّع عن السّفاهات: هذه الصّفة الثانية لعباد الرّحمن، فهم يترفعون عن سفاهة الحمقى وجدالهم والعراك معم ليس عجزاً أو ضُعفاً، بل لأنّ لديهم أهداف واهتمامات كبيرة تشغلهم عن الخوض في سفاهات الأمور، ولا يُضيعون وقتهم الثّمين في الجدال، وأيضاً يصفحون ويعفون عن الإساءة ويدفعون السيئة بالحسنة.

ثالثاً: قيام الليل والتهجّد والدّعاء: هنا تصف الآيات ليل هؤلاء الصالحين الأتقياء، فهم يقضون ليلهم بالصلاة، ومحاسبة النفس ومراقبة الله عز وجل في أعمالهم، والتضرّع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يقيهم عذاب النار، كما وتُعبّر الآيات عن خوفهم وفزعهم من النار، وقدرة تصورهم للنار وسوء العاقبة.

رابعاً: الاعتدال في الإنفاق: تُشير الآيات إلى صفة أخرى مُهمّة لصفات عباد الرحمن يسعى الإسلام لغرسها وتطبيقها في المجتمع؛ لما لها أثر على التوازن والعدل بين أفراد المجتمع، هذه الصفة هي التوسط والاقتصاد في الإنفاق، فالمسلم مُلزم بالتوسّط بين الإسراف والتقتير، فلا يحبس ماله عنه ولا ينتفع به، ولا يُسرف بغير حساب، حتى لو كان يملك المال الكثير فهو مُقيد في طرق إنفاق ماله بالأوجه التي تُرضي الله عز وجل، وتقتضي نفع المجتمع، فالمال وُجد لتحقيق المصالح الاجتماعيّة، وإلا سوف يحدث خلل اقتصادي إذا تجاوز الأمر الإسراف والتقتير، كما أن الإسراف أحياناً يكون سبباً في فساد الأخلاق، وقسوة القلوب.





خامساً: توحيد الله ﷻ: عباد الرحمن يخلِصون في عبوديتهم وتوحيدهم لله ﷻ، وهذه الصّفة هي أساس العقيدة السليمة، أهم ثمرات الإيمان وأعظمها وسبب لمغفرة الذنوب ودخول الجنة.

سادساً: تجنّب قتل النفس: الإسلام شرّع الأنظمة التي تُهيئ حياة آمنة بعيدة عن المخاوف والمخاطر، وقدر واحترم حياة الإنسان، لهذا حرّم قتل النفس بغير الحق، وقتل النفس بالوجه الشرعي ورد في حالات معيّنة ذكرتها بعض الآيات والأحاديث النبويّة التي أوجبت القصاص، وعباد الرّحمن يبتعدون عن ظلم الناس وقتلهم وإنهاء حياتهم بدون وجه شرعي، وكذلك يتأنون في تطبيق أمر مثل هذا.

سابعاً: البعد عن الزنا: يُعتبر الزّنا من الكبائر، لما له من آثار وخيمة على الفرد والمجتمع، فهو سبب في فساد المجتمع واختلاط الأنساب والمسلم يسعى للحياة الطاهرة البعيدة عن المعاصي، وقد شرّع الله ﷻ الزّواج لتفريغ احتياجات النفس دون اللجوء إلى ارتكاب الزّنا، وحتى يشعر الإنسان بسموّه وارتفاعه عن باقي الكائنات الحيّة، وعباد الرحمن الطاهرون يتسمون بالبعد عن الزنا بكل أشكاله، وأيضاً البُعد عن السبل التي تؤدي إلى الزنا كالنظر إلى المحرّمات، والاختلاط، وإضاعة الوقت في المغريات، وقد أخبر الله ﷻ بالآية نفسها عقاب من يرتكب إثم الزنا وأوجب عليه العذاب، والإهانة، والخلود في النار يوم القيامة، إلا من تاب توبةً نصوحاً وأقلع عن ذنبه وحاولَ الإكثار من العمل الصالح فإنّ الله ﷻ يغفر له، ويُكرمه، ويُبدّل سيئاته حسنات، ويُضيف حسنات إلى حسناته أيضاً، وهذا من فضل الله ﷻ وكرمه وجوده على عباده.



ثامناً: الترفّع عن الظلم: هذه سمة أخرى لعباد الرحمن الصادقين الذين يترفعون عن قول الزّور، كظلم الناس بشهادة باطلة، أو الإعانة على الظلم، أو تضييع حقوق عباد، أو تغيير الظاهر بخلاف الباطن.

تاسعاً: الترفّع عن اللغو: عباد الرحمن يترفعون ويصونون أنفسهم عن الخوض في لغو الكلام أو حتى سماعه، ويُكرمون أنفسهم بالترفّع عن هذه المجالس، ويُشغلون أنفسهم بما يُرضي الله عَزَّ وَجَلَّ وينفعهم في الدنيا والآخرة.

عاشراً: التأثُّر بآيات الله عَزَّ وَجَلَّ: يخشع عباد الرحمن المبصرون عند سماع آيات القرآن الكريم، ويتفاعلون معها كما وجب الله عَزَّ وَجَلَّ، ويدركون المغزى منها، فلا يدعون الآيات تمر عليهم دون تدبُر أو تفكُر، أو عمل فيطبقون ما أتى به القرآن، ويتجنبون ما نهى عنه، وهذا يُخالف حال الكافرين الذين يتجاهلون آيات الله عَزَّ وَجَلَّ كأنهم صُم، وبُكم وعُميان.

الحادي عشر: الدعاء بالذريّة الصالحة والتقوى: يتمنّى عباد الرحمن المتّقون أن يرزقهم الله عَزَّ وَجَلَّ الذريّة الصالحة لتطمئن نفوسهم بها، ويزيد عدد المؤمنين السالكين درب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيضاً يدعون بأن يكونوا قدوة وإماماً للخير.

وخُتمت الآيات بجزاء عباد الرّحمن وهو الجنة، وخصصت مكاناً مُحدداً لهم بالجنة يُدعى الغرفة، وهو مكان لائق حسن بهم، جزاء صبرهم على شهوات النفس وجهادهم على مُقاومة المغريات، وتقواهم ومخافة الله عَزَّ وَجَلَّ في عواقب الأمور، ووصف حال عباد الرّحمن في الجنة وهم يُلقون التحيّة والسلام على بعضهم.



الخلاصة صفات عباد الرحمن

هذه هي صفات عباد الرحمن، وهي إحدى عشرة صفة، يستحق بها أهلها المنازل العالية في الجنان.

الصفة الأولى: التواضع والطاعة لله ﷻ:

ويكون ذلك بالعلم بالله ﷻ والخوف منه، والمعرفة بأحكامه، والخشية من عذابه وعقابه.

الصفة الثانية: الحلم والكلام الطيب:

فإذا أُوذوا قابلوا الإساءة بالإحسان، قال الحسن البصري رضي الله عنه: "حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا"، أي على نقيض خلق الجاهلية: " ونجهل فوق جهل الجاهلين" وإنما يقول المؤمن للجاهل كلاماً موصوفاً بالرفق واللين.

الصفة الثالثة: التهجد ليلاً:

أي العبادة الخالصة لله ﷻ في جوف الليل، فإنها أكثر خشوعاً، وأضبط معنى، وأبعد عن الرياء.

الصفة الرابعة: الخوف من عذاب الله ﷻ:

أي إنهم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله ﷻ، سواء في سجودهم وقيامهم؛ لأن عذاب جهنم لازم دائم غير مفارق، وبئس المستقر، وبئس المقام، وهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم، كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلى النجاح.



الصفة الخامسة: الاعتدال في الإنفاق:

الاعتدال في الإنفاق دون إسراف ولا تقتير، والمراد من النفقة نفقة الطاعات المباحات، فهذه يطالب فيها الإنسان ألا يفرط فيها حتى يضيع حقاً آخر أو عيالاً، وألا يضيق أيضاً ويقتر، حتى يجيع العيال، ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القَوَام، أي العدل، والقَوَامُ في كل واحد بحسب حاله وعياله، وصبره وجلده على الكسب، وخير الأمور أوساطها، وهذه الوسطية خير للإنسان في دينه وصحته ودنياه وآخرته.

أما النفقة في معصية الله ﷻ فهو محظور حظرته الشريعة قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك التعدي على مال الغير، وهو حرام أيضاً.

الصفة السادسة: البعد عن الشرك:

وهو عبادة أحد مع الله ﷻ أو عبادة غير الله، وهو أكبر الجرائم، لذا قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء: ٤٨

الصفة السابعة: الابتعاد عن القتل العمد:

وهو إزهاق النفس الإنسانية عمداً دون حق، وهو اعتداء على صنع الله ﷻ، وإهدار لحق الحياة الذي هو أقدس حقوق الإنسان، أما القتل بحق كالقتل بسبب الردة أو زنى المحصن أو القصاص فجائز من قبل الحاكم.

الصفة الثامنة: اجتناب الزنى:

وهو انتهاك حرمة العرض، وهو جريمة خطيرة تؤدي إلى اختلاط الأنساب، وإشاعة الأمراض، وهدم الحقوق، وإثارة العداوات والأحقاد والبغضاء.

ومن يرتكب هذه الجرائم العظمى (الشرك، والقتل، والزنى) يضاعف له العذاب في نار جهنم، ويكون مخلداً فيها ذليلاً خاسئاً مبعداً مطروداً من رحمة الله سبحانه وتعالى.

لكن إذا تاب الكافر والقاتل والزاني تقبل توبته، ويبدل الله سبحانه وتعالى سيئته حسنة، إما في الدنيا على رأي، بأن يجعل الإيمان محل الشرك، والإخلاص محل الشك، والإحصان مكان الفجور، وإما في الآخرة على رأي آخر فيمن غلبت حسناته على سيئاته، وقيل: التبديل عبارة عن الغفران، أي يغفر الله سبحانه وتعالى لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات، ثم أكد الله سبحانه وتعالى قبول التوبة الصادقة النصوح من كل إنسان.

الصفة التاسعة: تجنب الكذب وشهادة الزور:

فلا يحضر المسلم مجالس اللغو والكذب والغناء واللهو ونحوها، ولا يؤدي شهادة الزور مهما كانت البواعث والأسباب؛ لأنها محرمة لذاتها. لذا قال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبداً، وإن تاب وحسنت حاله، فأمره إلى الله سبحانه وتعالى.

الصفة العاشرة: قبول المواعظ:

فإذا قرئ القرآن عليهم ذكروا آخرتهم ومعادهم، ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع.

الصفة الحادية عشرة: الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى:

الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى بجعل توابع الإنسان من أزواج وذريات هداة مهديين مطيعين لله عز وجل تقرّ النفوس بهم، وتثلج الصدور بسيرتهم العطرة، وأن يكونوا أئمة وقدوة يقتدى بهم في الخير، ولا يكون ذلك إلا إذا كان الداعي تقياً صالحاً.

وهذا يدل على جواز الدعاء بالولد، وللولد وللزوجة، وبأن يكون نفع الإنسان شاملاً غيره.



النهاية: جزاء عباد الرحمن وتكذيب الكافرين:

وجزاؤهم الدرجات العليا في غرفات الجنان، مع التوقير والاحترام، بالتحية والسلام، والخلود الدائم، والتمتع بحسن المقام والمنظر والاستقرار.

ونفع الطاعة للعباد لا لله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى غني عن عباده، فلولا عبادتهم وكثرة استغاثتهم إليه في الشدائد ونحوها، لما بالى الله سبحانه وتعالى بهم ولا اكترث بشأنهم. فإن كذبوا بما دعوا إليه من الإيمان وعبادة الله سبحانه وتعالى كان تكذيبهم ملازماً لهم، وجزاء التكذيب دائم لا مفرَّ منه"[1]

[1] التفسير المنير للزحيلي (19/ 125 – 128).





الخاتمة

نحمد الباري ونشكره على فضله ونعمه ورحمته، ها نحن نخط بأقلامنا الخطوط الأخيرة لهذا الكتاب بعد رحلة كبيرة من الجهد والتعب والسهر، وقد عرضنا بهذا البحث بعد بحث وجهد عميق موضوع **صفات عباد الرحمن**.

هذا وقد كانت رحلة ممتعة تستحق التعب والعناء، وهي كانت رحلة ارتقت بالفكر والعقل وقد عرجت بالأفكار المهمة لهذا الموضوع، وما هذا الجهد إلا نقطة في بحر العلم وجهد العلماء الذين سبقونا في العلم والبحث، وهذا الجهد هو قليل على البحث العلمي ولكن يكفينا شرف المحاولة، فإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان، وإن وفقنا فمن الله ﷻ، وقد **قال عماد الدين الأصفهاني**: "رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

وأخيراً لقد تقدمنا باليسير في العلم، ونرجو أن نكون قد وفقنا وينال رضاكم، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد ﷺ النبي الأمي وخير معلم والهادي والمبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد ﷺ وعلى آهله وصحبة أجمعين.

وفي الختام نسأل الله ﷻ أن نكون من عباده الصادقين الذين يتصفون بهذه الصفات، ومن المؤمنين المفلحين في الدنيا والآخرة، ومن عباد الرحمن حقاً، وأسأله أن يتقبل منا جميع أعمالنا، ويجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا، ويجعله خالصاً لوجه الكريم.

وآخرنا دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلي وسلم على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين





فهـــرس الـــقـــسم الأول



القسم الثاني

صفات المؤمنين المفلحين



صفات المؤمنين المفلحين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ ﴾ المؤمنون: ١ – ١١



الصفة الأولى

الفلاح والإيمان

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ﴾ المؤمنون: ١

يقول وهبة الزحيلي: "أي قد فازوا وسعدوا، لاتصافهم بصفة الإيمان أي التصديق بالله عز وجل ورسله واليوم الآخر"[1]

يقول صاحب الظلال: "فهو الوعد الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين؛ لأنه وعد الله عز وجل لهم، فهو الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته، فهم مكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والفلاح والفوز والنجاة والثواب والرضوان في الآخرة"[2]

الإيمان هو تصديق واعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، يزيد بطاعة الله عز وجل وينقص بالعصيان، والإيمان سبباً في دخول الجنة حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦ ﴾ النساء: ١١٦، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"[3]

فالإيمان المطلوب هو إيمان نستلهم منه أسرار النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، فهو ينير القلب ويطمئنه، ويريح النفس، وتعلو الروح به، فهو حلاوة الحياة ونبض

---

[1] التفسير المنير للزحيلي (18/ 11).
[2] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2453)
[3] المعجم الصغير للطبراني (2/ 114).





القلب، وليزداد العبد إيماناً لله ﷻ حتى يكون من الفائزين في الدنيا والفالحين في الآخرة، **ويقول عمرو بن عبيد بن عمر** رضي الله عنه: "الإيمان هيوب[1]" [2]

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: "ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال."[3]

ويقول ابن القيم رحمه الله: "والإيمان وراء ذلك كله وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والتصديق به عقداً والإقرار به نطقاً والانقياد له محبة وخضوعاً والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله ﷻ والبغض في الله ﷻ والعطاء لله ﷻ والمنع لله ﷻ، وأن يكون الله ﷻ وحده إلهه ومعبوده، والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، وبالله سبحانه وتعالى التوفيق، ومن اشتغل بالله سبحانه وتعالى عن نفسه كفاه الله ﷻ مئونة نفسه، ومن اشتغل بالله ﷻ عن الناس كفاه الله سبحانه وتعالى مئونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله سبحانه وتعالى وكله الله ﷻ إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله سبحانه وتعالى وكله الله ﷻ إليهم."[4]

الإيمان نعمة عظيمة، ومنحة جسيمة، فلا يمكن للعبد أن يعيش حياة طيبة في الدنيا ثم ينقلب من ذلك إلى سعادة أبدية سرمدية إلا وهو متنعم بهذه النعمة العظيمة ألا وهي نعمة الإيمان، قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

[1] هيوب: يهابه الناس أو يهاب الذنوب.
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 272)
[3] اقتضاء العلم والعمل للخطيب البغدادي (1/ 42)
[4] الفوائد لابن القيم (ط. دار الحديث، ص 133)





فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾

﴾ النحل: ٩٧

والإيمان أفضل أعمال القلب والجوارح، قيل للنبي ﷺ: "أي الأعمال أفضل، قال: إيمان بالله وبرسوله، قيل: ثم ماذا، قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا، قال: حج مبرور"[1]

كما أن الله ﷻ تمنن على عباده بالإيمان فقال ﷻ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الحجرات: ١٧

كما وتمنن الله ﷻ أيضاً على المؤمنين بأنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم فقال ﷻ: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الحجرات: ٧

واشتراط الله ﷻ على كل من عمل عملاً صالحاً الإيمان حتى ينتفع بعمله الصالح في الآخرة، فقال ﷻ: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ ﴾ الإسراء: ١٩، إن أهل الإيمان مبشرون بكل خير وشرف ونعمة وكرامة في الدنيا والآخرة كما قال ﷻ: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

[1] رواه البخاري (2/ 133)





لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ يونس: ٦٢ – ٦٤، كما أن أهل الإيمان يسعدون بمعية الله ﷻ، وهي المعية الخاصة، معية التسديد والتأييد والنصرة كما قال ﷻ: ﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأنفال: ١٩، والإيمان قوة عظيمة تغير القلوب، وتغير الوجوه، وتغير الأقوال، وتغير الأعمال، وتغير الأهداف، فإذا انشرح قلب العبد بالإيمان ذاق حلاوة معرفة الرحمن، وينقلب إنساناً جديداً، وترتفع همته، فالإيمان هو الذي يجعل المؤمن يحتقر شهوات الدنيا؛ لأنه ينظر إلى الآخرة، ويعلم خطرها، ويجعل المؤمن أيضاً يحتقر طواغيت الأرض؛ لأنه ينظر إلى عظمة مالك السموات والأرض ﷻ، ويجعل المؤمن يستهين بمصائب الدنيا؛ لأنه يحتسبها عند الله ﷻ، ويرغب في ثواب الصبر عليها والرضا بها، وهو يجعل المؤمن يستصغر بذله وإنفاقه في سبيل الله ﷻ؛ لأنه يرجو عند الله ﷻ بره وذخره.

فالإيمان هو سبب لجلب كل الخير في الدنيا والآخرة، وهو يهون على العبد كل شيء وذلك كما **قال ابن القيم** رحمه الله: "أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين، فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية"[1]

[1] الداء والدواء لابن القيم (ط. دار الحديث، ص 75)





وأصل الإيمان به يدخل العبد في الإسلام، وبه يكون اعتبار سائر الأعمال، وبصلاح ما في القلب أو فساده يكون صلاح الأعمال أو فسادها، قال ﷺ: "ألا في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[1]

"فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، فالتصديق هو قول القلب، والحب عمل القلب نحو المشهود لهما، والانقياد عمل القلب أيضاً، وهو القبول وعقد العزم على الامتثال لما دلت عليه الشهادتان."[2]

وقد كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن عدي: "أن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان"[3]

إن شجرة الإيمان من أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها، وأن عروقها وأصولها وقواعدها الإيمان وعلومه ومعارفه، وساقها وأفنانها شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله عز وجل، والمتابعة لرسول الله ﷺ، وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر السمت الحسن والهدي الصالح، والخلق الجميل، واللهج بذكر الله عز وجل، وشكره والثناء عليه، والنفع لعباد الله عز وجل بحسب القدرة، نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن ونفع المال، وجميع طرق النفع، وحقيقة ذلك كله القيام بحقوق الله عز وجل، وحقوق خلقه، وأن الفضل في ذلك كله لله سبحانه وتعالى وحده والمنّة كلها له سبحانه وتعالى.[4]

فالإيمان الذي أثنى الله سبحانه وتعالى على أهله ليس هو العقيدة فحسب، ولكنّ العقيدة تمثل قاعدة الإيمان وأصله، فالإيمان عقيدة تستقرّ في القلب استقراراً يلازمه، ولا ينفك عنه،

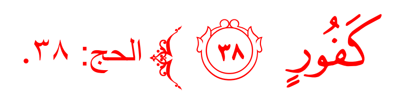
[1] رواه البخاري (1/ 20)، رواه مسلم (3/ 1219)
[2] أثر الإيمان في تحصيل الأمة (1/ 191)
[3] رواه البخاري (1/ 10)
[4] التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (1/ 109)، الايمان بالله عز وجل (1/ 229)



ويعلن صاحبها بلسانه عن العقيدة المستكنّة في قلبه، ويُصدّق الاعتقاد والقول بالعمل الصالح وفق مقتضى هذه العقيدة. إذن ليس الإيمان مجرد معرفة باردة بالله ﷻ، أو معرفة يستعلي صاحبها عن الإقرار بها أو يرفض أن ينصاع لحكمها، بل هي عقيدة رضي بها قلب صاحبها، وأعلن عنها بلسانه وارتضى المنهج الذي صاغه الله ﷻ متصلاً بها.[1]

ومثل الإيمان كشجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة، وباسقة بسوقها في السماء، مزهرة مثمرة مِعْطاءة، تعطي أكلها كلّ حين بإذن ربها ﷻ، فالإيمان هو الشجرة، وجذورها العقيدة التي تغلغلت في قلب صاحبها، والسوق والفروع والثمار هي العمل.[2]

والذي يكفر بالإيمان فإن الله ﷻ يحبط عمله ويجعله في الآخرة من الخاسرين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥ ﴾ المائدة: ٥؛ لأن الإيمان أصل وأساس العمل، فأهل الإيمان هم أهل الفلاح في الدنيا والآخرة، لذلك قال الله ﷻ في بداية سورة المؤمنون قد أفلح المؤمنون، والله سبحانه وتعالى قد أفلح المؤمنون حقاً إذا اتصفوا بما وصفهم الله ﷻ بهم، ومن أعظم الشرف أن الله سبحانه وتعالى يحب أهل الإيمان والمؤمنون، وأن الله سبحانه وتعالى معهم دائماً، يا له من شرف عظيم أيها المؤمنون ويا أهل الإيمان الصادق، وكما أن الله سبحانه وتعالى يدافع عن المؤمنين وأهل الإيمان حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ



كَفُورٍ ۝٣٨ ﴾ الحج: ٣٨.

---

[1] العقيدة في الله/ عمر سليمان الأشقر (ص 21- 22)
[2] العقيدة في الله/ عمر سليمان الأشقر (ص23)

فالإيمان نور من الله ﷻ جعله للمؤمنين المفلحين يهدي به من يشاء من عباده، فهو نور في القلب ينير له طريق الحق كما قال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى: ٥٢

وإن من شروط النصر والتمكين لهذه الأمة تحقيق الإيمان بكل معانيه وجميع أركانه وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفايا حيث قال الله ﷻ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ النور: ٥٥ ـ ٥٦

قال البيضاوي: "قد فازوا بأمانيهم وقد تثبت المتوقع كما أن لما تنفيه وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، ولذلك تقربه من الحال ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله ﷻ صدرت بها بشارتهم."[1]

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 82).



قال أبو السعود: "الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء في الخير والإفلاح الدخول في ذلك كالإبشار الذي هو الدخول في البشارة وقد يجيء متعدياً بمعنى الإدخال فيه، فالمعنى قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقعاً من حالهم فإن إيمانهم وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعي الفلاح بموجب الوعد الكريم خلا أنه إن أريد بالإفلاح حقيقة الدخول في الفلاح الذي لا يتحقق إلا في الآخرة فالإخبار به على صيغة الماضي الدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت وإن أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضي في محلها"[1]

قال السعدي: "هذا تنويه من الله ﷻ، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي: شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك، الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصاً، كثرة وقلة، فقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام المؤمنون الذين آمنوا بالله ﷻ وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم في صلاتهم خاشعون"[2]

قال ابن عاشور: "افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه، ولما كانت همة المؤمنين منصرفة إلى تمكن الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم كان ذلك إعلاماً بأنهم نجحوا فيما تعلقت به هممهم من خير الآخرة وللحق من خير

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 123).
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص547





الدنيا، ويتضمن بشارة برضى الله ﷻ عنهم ووعداً بأن الله سبحانه وتعالى مكمل لهم ما يتطلبونه من خير، وأكد هذا الخبر بحرف (قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق أي التوكيد، فحرف (قد) في الجملة الفعلية يفيد مفاد (إن واللام) في الجملة الاسمية، أي يفيد توكيداً قوياً، ووجه التوكيد هنا أن المؤمنين كانوا مؤملين مثل هذه البشارة فيما سبق لهم من رجاء فلاحهم كالذي في قوله: ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧ ﴾ الحج: ٧٧، فكانوا لا يعرفون تحقق أنهم أتوا بما أرضى ربهم سبحانه وتعالى ويخافون أن يكونوا فرطوا في أسبابه وما علق عليه وعده إياهم، بله أن يعرفوا اقتراب ذلك فلما أخبروا بأن ما ترجوه قد حصل حقق لهم بحرف التحقيق وبفعل المضي المستعمل في معنى التحقق، فالإتيان بحرف التحقيق لتنزيل ترقبهم إياه لفرط الرغبة والانتظار منزلة الشك في حصوله"[1]

قال ابن عاشور: "إجراء الصفات على المؤمنين بالتعريف بطريق الموصول وبتكريره للإيماء إلى وجه فلاحهم وعلته، أي أن كل خصلة من هاته الخصال هي من أسباب فلاحهم، وهذا يقتضي أن كل خصلة من هذه الخصال سبب للفلاح؛ لأنه لم يقصد أن سبب فلاحهم مجموع الخصال المعدودة هنا فإن الفلاح لا يتم إلا بخصال أخرى مما هو مرجع التقوى، ولكن لما كانت كل خصلة من هذه الخصال تنبيء عن رسوخ الإيمان من صاحبها اعتبرت لذلك سبباً للفلاح، كما كانت أضدادها كذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ

[1] التحرير والتنوير (18/ 8).





﴿ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦﴾ المدثر: ٤٢ - ٤٦، على أن ذكر عدة أشياء لا يقتضي الاقتصار عليها في الغرض المذكور"[1]

قال البقاعي: "مقصودها اختصاص المؤمنين بالفلاح، واسمها واضح الدلالة على ذلك (بسم الله) الذي له الأمر كله، فلا راد لأمره (الرحمن) الذي من عموم رحمته الإبلاغ في البيان (الرحيم) الذي خص من أراد بالإيمان.

لما ختمت الحج بنداء الذين آمنوا وأمرهم بأمور الدين خاصة وعامة، وختم بالصلاة والزكاة والعصمة به ﷻ موصوفاً بما ذكر، أوجب ذلك توقع المنادين كل خير، فابتدأت هذه بما يثمر الاعتصام به ﷻ في الصلاة وغيرها من خلال الدين في الدارين، فقال ﷻ مفتتحاً بحرف التوقع ﴿قَدۡ﴾ وهي نقيضة لما تثبت المتوقع وتقرب الماضي من الحال ولما تنفيه ﴿أَفۡلَحَ﴾ أي فاز وظفر الآن بكل ما يريد، ونال البقاء الدائم في الخير ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وعبر بالاسم إشارة إلى أن من أقر بالإيمان وعمل بما أمر به في آخر التي قبلها، استحق الوصف الثابت؛ لأنه اتقى وأنفق مما رزق فأفلح، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ الحشر: ٩"[2]

ويقول ابن عثيمين: "أي قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام، المؤمنون الذين آمنوا بالله ﷿ وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم في صلاتهم خاشعون."[3]

---

[1] التحرير والتنوير (18/ 9).
[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 105).
[3] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (5/ 598).





"يخبر الله سبحانه وتعالى أن المؤمنين به، وبما أرسل به رسله، وبما أمر بالإيمان به كاليوم الآخر، والقدر، هم الفائزون المفلحون يقيناً، والمراد بالمؤمنين الذين صدقوا وأيقنوا واجتمعت فيهم الصفات المذكورة."[1]

ومن فوائد الإيمان: الرضا بالقضاء والصبر على البلاء إذ كله من عند الله عز وجل، وبذل كل معروف ومحبوب للرب الخالق سبحانه وتعالى، وترك كل مكروه له سبحانه وتعالى، سلامة النفس من أمراضها والسكينة والرضا في القلب، والطاعة الكاملة مع الحب الغامر لمن كان سبباً لكل خير وهو الرب العظيم سبحانه وتعالى، ما فات في الدنيا يعوض في الآخرة، والتسليم الكامل لشرعه بل هوى نفس المؤمن وراحة فؤاده في تحكيم شرعه في القليل والكثير، وشرط قبول الأعمال، والإيمان ينجي من دخول النار ومن البقاء فيها، والإيمان الكامل يستلزم العمل الصالح، والإيمان هو التطبيق الفعلي للإسلام فمن أسلم بلسانه لابد أن يصدق بقلبه ويعمل بجوارحه حتى يكون مؤمناً، ويولد الإيمان الحقيقي حلاوة في القلب تجعل صاحبها لا ينفك عن تحصيل أسبابها، ويجعل النفس مطمئنة راضية قانعة بما يقدره الله سبحانه وتعالى ويقضيه عليها ولها.[2]

---

[1] التفسير المنهجي (6/ 71)

[2] نظرة النعيم (3/ 748)





الصفة الثانية
الخشوع في الصلاة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ المؤمنون: ٢

يقول الطبري: "الذين هم في صَلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعهم فيها تذللهم لله ﷻ فيها بطاعته، وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها، وقيل إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها، فنُهُوا بهذه الآية عن ذلك"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "أي خائفون ساكنون، والخشوع خشوع القلب، وهو الخضوع والتذلل مع الخوف وسكون الجوارح."[2]

قال الحسن البصري رحمه الله: " كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح." [3]

والخشوع واجب ضروري لتعقل معاني الصلاة، ومناجاة الرب عز وجل، وتذكر الله ﷻ والخوف من وعيده، وتدبر آيات القرآن وتفهم معانيها، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وحينئذ تكون له الراحة وقرة عين، كما قال النبي ﷺ: "حُبِّب إلي الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة."[4]

---
[1] جامع البيان للطبري (19/ 694).
[2] التفسير المنير للزحيلي (9/ 330)
[3] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/ 84)
[4] مسند أحمد (19/ 305).





إذن الخشوع هو الخضوع والتذلل لله ﷻ والخوف منه، ومحله القلب، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها لخشوعه، والخشوع يعتبر من أساس قبول الصلاة، والظفر بثواب الله ﷻ.

قال ابن عطية: "والخشوع التطامن وسكون الأعضاء والوقار، وهذا إنما يظهر ممن في قلبه خوف واستكانة، وروي عن بعض العلماء أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع هذا خشعت جوارحه، وروي أن سبب هذه الآية أن المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم يمنة ويسرة فنزلت هذه الآية وأمروا أن يكون بصر المصلي حذاء قبلته أو بين يديه"[1]

وقال الرازي: "واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات، ومنهم من جمع بين الأمرين وهو الأولى، فالخاشع في صلاته لا بد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود، ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سوى التعظيم، ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده، ومن التروك أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، ولكن الخشوع الذي يرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح فإن ما يتعلق بالقلب لا يرى"[2]

ويقول صاحب الظلال: "تستشعر قلوبهم رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله سبحانه وتعالى، فتسكن وتخشع، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات، ويغشى أرواحهم جلال الله ﷻ في حضرته، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، ولا تشتغل بسواه، فلا يشهدون إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يحسون إلا إياه، ولا يتذوقون إلا معناه. يتطهر

[1] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (4/ 136).
[2] التفسير الكبير للرازي (23/ 259)





وجدانهم من كل دنس، وينفضون عنهم كل شائبة وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلا ما يتصل منها بالله ﷻ."[1]

"فالخشوع أكمل آلات العروج في العبودية وقد حصل في تعلقه بالجسد النيرانى وليس لأحد من العالمين هذا الخشوع، وبهذا السر أبت الملائكة وغيرهم أن يحملن الأمانة فاشفقن منها، لأن الإباء ضد الخشوع وحملها الإنسان باستعداد الخشوع وكمل خشوعه بالسجود إذ هو غاية التذلل في صورة الإنسان وهيئة الصلاة ونهاية قطع تعلق الروح من العالم السفلى وعروجه الى العالم الروحاني العلوي برجوعه من مراتب الإنسانية"[2]

"الخشوع الخوف والتذلل وفى المفردات الخشوع الضراعة وأكثر ما يستعمل فيما يوجد على الجوارح والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد على القلب ولذلك قيل فيما ورد (إذا ضرع القلب خشعت الجوارح) أي خائفون من الله ﷻ متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم"[3]

قال السعدي: "والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله ﷻ، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدباً بين يدي ربه ﷻ، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها"[4]

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2454)
[2] روح البيان (1/ 37)
[3] روح البيان (6/ 66).
[4] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 547.





ويقول ابن القيم رحمه الله: "وقد علق الله سبحانه وتعالى الفلاح بخشوع المصلى في صلاته فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً، بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً، وكلما قل خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا اقبال على العبودية، ولا معرفة حقيقة العبودية."[1]

فالصلاة بلا خشوع كالجسد بلا روح فهو جسد ميت، **يقول ابن القيم** رحمه الله: "كذلك فوت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب عز وجل الذي هو روحها ولبها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يهدي إلى مخلوق مثله عبداً ميتاً أو جارية ميتة؟ فما ظن هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو من أمير أو غيره؟ فهكذا سواء الصلاة الخيالية عن الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله سبحانه وتعالى فيها بمنزلة هذا العبد، أو الأمة ـ الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك ولهذا لا يقبلها الله سبحانه وتعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها."[2]

فالخشوع هو قيام القلب بين يدي الله عز وجل بالخضوع والذل والانقياد للحق، **ويقول ابن القيم** رحمه الله: "والحق أن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار."[3]

أخي المصلي.. أعلم رعاك الله أنك وقفت بين يدي الله عز وجل إلا طاعة لله عز وجل وامتثالاً لأمره فما بالك تُضيع ذلك بكثرة الحركة والغفلة في الصلاة، ألم تعلم أن الخشوع هو روح الصلاة ومادة حياتها.. وهو ثمرة الإيمان وطمأنينة النفس، وأنك ربما تتصرف ولم

[1] الصلاة وأحكام تاركها لابن القيم (1/ 140)
[2] الوابل الصيب من الكلم الطيب (1/ 10)
[3] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 558- 559)





يكتب لك من صلاتك إلا الشيء اليسير، قال ﷺ: "إن الرجل لينصرف، وما كتب له إلا عُشر صلاته، تُسعها، ثُمنها، سُبعها، سُدسها، خُمسها، ربُعها، ثُلثها، نُصفها."[1]

الخشوع هو روح الصلاة ولبها والغاية منها، وما خشع عبد في صلاته إلا أثمرت ثمرات رائعة في حياته، وإذا حقق المسلم الخشوع استشعر لذة الصلاة، واستكثر منها، وتعلق قلبه بالمساجد، يشكو بثه وهمه لربه ﷻ، ويفرده بالعبودية والمحبة والخضوع، فقبل الله ﷻ منه، وكتب له أجر صلاته، أما إذا فقد العبد الخشوع في صلاته، وقعت صلاته جسداً بلا روح، وحركات جوفاء لا يذكر الله ﷻ فيها إلا قليلاً، وإذا فقد المصلي خشوعه لم يلتذ بصلاته ولم يتفكر في كلام ربه ﷻ الذي يتلوه أو يُتلى عليه، ولم يستشعر الاطمئنان بذكر الله ﷻ ولم يفرح بصلاته؛ ولعلها لم تزده من الله ﷻ إلا بعداً.

فقد مدح الله ﷻ الخاشعين، ووصفهم في صلاتهم أفضل من غيرهم فقال ﷻ:

﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ البقرة: ٤٥،

وقال أيضاً: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الإسراء: ١٠٩،

ويقول أيضاً: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٠

وتتجلى في الخشوع في الصلاة معاني الانكسار بين يدي الله ﷻ، وإظهار الضعف والفقر والذل والمسنة بين يديه ﷻ، وأفضل العبادات ما تحقق فيها معاني الفقر

[1] رواه أبي داود (1/ 211)



والانكسار والذل لله ﷻ، ولا يتحقق ذلك المعنى في الصلاة إلا بالخشوع، فالخشوع في الصلاة يكون كفارة للعبد المؤمن لما عمل من الذنوب كما أخبر النبي ﷺ: "ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله."[1]

قال ابن عاشور: "والخشوع هو خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولا شك أن الخشوع، أي الخشوع لله ﷻ، يقتضي التقوى فهو سبب فلاح، وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع وخاصة إذا كان في حال الصلاة؛ لأن الخشوع لله ﷻ يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محله القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته، وذكر مع الصلاة؛ لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله ﷻ وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله ﷻ كان أولى الأحوال به حال الصلاة لأن المصلي يناجي ربه ﷻ فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه ﷻ فيخشع له، وهذا من آداب المعاملة مع الخالق ﷻ وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها"[2]

قال الشنقيطي: " أصل الخشوع: السكون، والطمأنينة، والانخفاض، وهو في الشرع: خشية من الله ﷻ تكون في القلب، فتظهر آثارها على الجوارح.

وقد عد الله ﷻ الخشوع من صفات الذين أعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً في قوله ﷻ:

﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٥ إلى قوله ﷻ: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم

---

[1] رواه مسلم (1/ 206)

[2] التحرير والتنوير (18/ 9).



﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ الأحزاب: ٣٥، وقد عد الخشوع في الصلاة هنا من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس، وبين أن من لم يتصف بهذا الخشوع تصعب عليه الصلاة في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ البقرة: ٤٥، وقد استدل جماعة من أهل العلم بقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ على أن من خشوع المصلي: أن يكون نظره في صلاته إلى موضع سجوده، قالوا: كان النبي ﷺ ينظر إلى السماء في الصلاة، فأنزل الله ﷻ الذين هم في صلاتهم خاشعون فجعل رسول الله ﷺ ينظر حيث يسجد"[1]

قال البقاعي: "ثم قيدهم بما يلزم من الصدق في الإيمان فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ أي بضمائرهم وظواهرهم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ أضيفت إليهم ترغيباً لهم في حفظها؛ لأنها بينهم وبين الله ﷻ، وهو غني عنها، فهم المنتفعون بها ﴿خَاشِعُونَ﴾ أي أذلاء ساكنون متواضعون مطمئنون قاصرون بواطنهم وظواهرهم على ما هم فيه"[2]

قال الرازي: "خائفون خوفاً يملأ القلب حرمة، والأخلاق تهذيباً، والأطراف تأديباً، أي خشية أن ترد عليهم صلاتهم، ومن ذلك خفض البصر إلى موضع السجود، فالعبد إذا دخل في الصلاة رفع الحجاب، وإذا التفت أرخى، وهو خوف ممزوج بتيقظ واستكانة، ثم قد يكون في المعاملة إيثاراً ومجاملة وإنصافاً ومعدلة، وفي الخدمة حضوراً واستكانة، وفي السر تعظيماً وحياءً وحرمةً، والخشوع في الصلاة بجمع الهمة لها،

---

[1] أضواء البيان (5/ 305).
[2] نظم الدرر في ترتيب الآيات والسور (13/ 105 – 106).



والإعراض عما سواها، وذلك بحضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، وإذا كان هذا حالهم في الصلاة التي هي أقرب القربات فهم به فيما سواها أولى"[1]

يقول ابن كثير: "والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين، عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "وجعلت قرة عيني في الصلاة"[2]، وقال ﷺ: "يا بلال! أرحنا بالصلاة[3]"[4]

يقول ابن عثيمين: "والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله ﷻ مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته ويقل التفاته، متأدباً بين يدي ربه ﷷ، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزية مثاباً عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها."[5]

الخشوع في الصلاة وهو التذلل لله ﷻ، واستحضار عظمته ﷷ في القلب، فلا ينشغل المصلي بشيء آخر سوى الصلاة، فلا ينظر ببصره إلا إلى موضع سجوده، ولا يعبث بيديه، ويتحلى بالسكون والطمأنينة."[6]

ومن فوائد الخشوع: أنه يورث الخوف والرهبة من الله ﷷ، وهو مظهر من مظاهر الإيمان وحسن الإسلام، وهو دليل على صلاح العبد واستقامته، وإعلان العبودية

---

[1] نظم الدرر في ترتيب الآيات والسور (13/ 106).
[2] مسند أحمد (21/ 433)، سنن النسائي (7/ 61).
[3] مسند أحمد (38/ 178).
[4] تفسير ابن كثير (5/ 403).
[5] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (5/ 598)
[6] التفسير المنهجي (6/ 71)



لله عَزَّ وَجَلَّ ونبذ ما سواه، وتكفير الذنوب وتعظيم الأجر، والنجاة من العذاب والعقوبة، والفوز بالجنة، فهو يرفع صاحبه يوم القيامة، ويبعد القسوة من القلب، كما أن الخشوع في الصلاة يؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة.[1]

[1] نظرة النعيم (5/ 1837)





الصـــفـــة الـــثـــالـــثـــة
الإعـــراض عـــن الـــلـــغـــو

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ المؤمنون: ٣

قال البيضاوي: "والذين هم عن اللغو عما لا يعنيهم من قول أو فعل، معرضون لما بهم من الجد ما شغلهم عنه، وهو أبلغ من الذين لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير، والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً، فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه"[1]

قال السعدي: "﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه -إلا في الخير- كان مالكاً لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين وصاه بوصايا قال: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ " قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: " كف عليك هذا "[2]، فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات"[3]

يقول وهبة الزحيلي: "أي الذين يتركون رأساً كل ما كان حراماً أو مكروهاً، أو مباحاً لا خير فيه، ولا يعني الإنسان ولا حاجة له فيه، وذلك يشمل الكذب والهزل والسب

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 82).
[2] مسند أحمد (36/ 345)، سنن الترمذي (5/ 12)، السنن الكبرى للنسائي (10/ 214).
[3] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص547.





وجميع المعاصي وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، والإعراض عن الباطل والشرك والمعاصي كلها."[1]

ويقول صاحب الظلال: "لغو القول، ولغو الفعل، ولغو الاهتمام والشعور، إن للقلب للمؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر، له ما يشغله من ذكر الله ﷻ، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق، كل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب، ويشغل الفكر، وله ما يشغله من تكاليف العقيدة، تكاليفها في تطهير القلب، وتزكية النفس وتنقية الضمير، وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف، وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها، والسهر عليها من كيد الأعداء، وهي تكاليف لا تنتهي وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية، ولا ينفي هذا أن يُرَوِّح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين، ولكن هذا شيء آخر غير اللغو واللهو والفراغ."[2]

قال ابن عاشور: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ العطف من عطف الصفات لموصوف واحد، وتكرير الصفات تقوية للثناء عليهم، والقول في تركيب جملة هم عن اللغو معرضون كالقول في هم في صلاتهم خاشعون، وكذلك تقديم (عن اللغو) على متعلقه، وإعادة اسم الموصول دون اكتفاء بعطف صلة على صلة للإشارة إلى أن كل صفة من الصفات موجبة للفلاح فلا يتوهم أنهم لا يفلحون حتى يجمعوا بين مضامين الصلاة كلها، ولما في الإظهار في مقام الإضمار من زيادة تقرير للخبر في ذهن السامع .

واللغو: الكلام الباطل

[1] التفسير المنير للزحيلي (9/ 330)
[2] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2454)





والإعراض: الصد أي: عدم الإقبال على الشيء، من العرض بضم العين وهو: الجانب؛ لأن من يترك الشيء: يوليه جانبه ولا يقبل عليه، فيشمل الإعراض إعراض السمع عن اللغو، وتقدم عند قوله ﷻ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴿٦٣﴾ ﴾ النساء: ٦٣، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأنعام: ٦٨، وأهمه الإعراض عن لغو المشركين عند سماع القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ فصلت: ٢٦، وقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان: ٧٢، ويشمل الإعراض عن اللغو بالألسنة، أي: أن يلغوا في كلامهم.

وعقب ذكر الخشوع بذكر الإعراض عن اللغو؛ لأن الصلاة في الأصل: الدعاء وهو من الأقوال الصالحة، فكان اللغو مما يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدية، فكان الإعراض عن اللغو بمعنيي الإعراض مما تقتضيه الصلاة والخشوع ؛ لأن من اعتاد القول الصالح تجنب القول الباطل ومن اعتاد الخشوع لله ﷻ تجنب قول الزور، قال ﷺ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم"[1]، والإعراض عن جنس اللغو من خلق الجد ومن تخلق بالجد في شئونه كملت نفسه ولم يصدر منه إلا الأعمال النافعة، فالجد في الأمور من خلق الإسلام، والإعراض عنه يقتضي بالأولى اجتناب قول اللغو ويقتضي تجنب مجالس أهله، واعلم

[1] رواه البخاري (8/ 101).





أن هذا أدب عظيم من آداب المعاملة مع بعض الناس وهم الطبقة غير المحترمة؛ لأن أهل اللغو ليسوا بمرتبة التوقير فالإعراض عن لغوهم ربء عن التسفل معهم"[1]

البعد عن اللغو من صفات عباد الرحمن المؤمنين الذين يستحقون الفردوس الأعلى، وهي من أركان الفلاح ودلائل الكمال ومما يؤدي إلى الخشوع في الصلاة، وقد يمتد أثر الخشوع إلى ما بعد الصلاة فيحجبهم عن اللغو، ولن يتم الخشوع في الصلاة بدون الإعراض عن اللغو والجدل والشحناء.

قال الشنقيطي: "أن من صفات المؤمنين المفلحين إعراضهم عن اللغو، وأصل اللغو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، فيدخل فيه اللعب واللهو والهزل، وما توجب المروءة تركه"[2]

قال الزمخشري: "اللغو: ما لا يعنيك من قول أو فعل، كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه، يعنى أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل، لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف"[3]

قال ابن عطية: "واللَّغْوِ سقط القول وهذا يعم جميع ما لا خير فيه ويجمع آداب الشرع"[4]

قال الرازي: "وفي اللغو أقوال: أحدها: أنه يدخل فيه كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو كان مباحاً، ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة وثانيها: أنه عبارة عن كل ما كان حراماً فقط، وهذا التفسير أخص من الأول وثالثها: أنه عبارة عن المعصية في

---

[1] التحرير والتنوير (18/ 10 – 11).
[2] أضواء البيان للشنقيطي (5/ 306).
[3] الكشاف للزمخشري (3/ 175).
[4] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (4/ 136).





القول والكلام خاصة، وهذا أخص من الثاني ورابعها: أنه المباح الذي لا حاجة إليه، واحتج هذا القائل بقوله ﷻ: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴿٨٩﴾ ﴾ المائدة: ٨٩، فكيف يحمل ذلك على المعاصي التي لا بد فيها من المؤاخذة، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمي لغواً بما أنه يلغى وكل ما يقتضي الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو، فوجب أن يكون كل حرام لغواً، ثم اللغو قد يكون كفراً لقوله ﷻ: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴿٢٦﴾ ﴾ فصلت: ٢٦، وقد يكون كذباً لقوله ﷻ: ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ ﴾ الغاشية: ١١، وقوله ﷻ: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ الواقعة: ٢٥، ثم إنه ﷻ مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو والإعراض عنه، هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه، وعلى هذا الوجه قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان: ٧٢، واعلم أنه ﷻ لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس الذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم"[1]

قال النسفي: "اللغو كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل يعني أن لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف"[2]

---

[1] التفسير الكبير للرازي (23/ 261).

[2] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (2/ 459).





قال النيسابوري: "ولما كان اللغو هو الساقط من القول أو الفعل احتمل أن يقع في الصلاة، وأيضاً كان الإعراض عنه من باب التروك كما أن الخشوع وهو استعمال الآداب وما لا يصح ولا تكمل الصلاة إلا به كان من باب الأفعال وعلى الفعل والترك بناء قاعدة التكليف فلا جرم جعلهما قرينين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ واللغو على ما قلنا يشمل كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو مباحاً لا ضرورة إليه ولا حاجة قولاً أو فعلاً، فمن الحرام قوله ﷻ حكاية عن الكفار: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ ﴿٢٦﴾ ﴾ فصلت: ٢٦، فإن ذلك اللغو كفر والكفر حرام، ومن المباح قوله ﷻ: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٢٥، ولو لم يكن مباحاً لم يناسبه عدم المؤاخذة، والإعراض عن اللغو هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه كما قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان: ٧٢"[1]

إن أهل الإيمان لا يقفون عند اللغو، بل يهجرونه ويتقونه، قال النبي ﷺ: "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون[2] والمتشدقون والمتفيقهون"[3]

والإعراض عن اللغو الذي هو كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه، بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولاً وفعلاً، ولا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان.

---
[1] غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (5/ 109).
[2] يقول الترمذي الثرثار: كثير الكلام
[3] رواه الترمذي (4/ 370)





ولهذا كان الصحابة ﵃ ومن بعدهم إذا وجدوا غفلة أو تشعث في إيمانهم، يقول بعضهم لبعض **"اجلس بنا نؤمن ساعة"** فيذكرون الله ﷻ، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية، فيتجدد بذلك إيمانهم.

قال الطنطاوي: "واللغو: ما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال، فيدخل فيه اللهو والهزل وكل ما يخل بالمروءة وبآداب الإسلام، أي: أن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم ينزهون أنفسهم عن الباطل والساقط من القول أو الفعل، ويعرضون عن ذلك في كل أوقاتهم؛ لأنهم لحسن صلتهم بالله ﷻ اشتغلوا بعظائم الأمور وجليلها: لا بحقيرها وسفسافها"[1]

والإعراض عن اللغو نظافة في الفكر والضمير واللسان، وصون لها عن التفاهات والانحرافات، واللَّغْوُ كلُّ ما لا فائدة فيهِ ولا خيرَ من قولٍ أو فعلٍ، فهم معرضونَ عنه لقوةِ عزيمتِهم وشِدَّةِ حزمِهم لا يُمضُونَ أوقاتَهم الثمينةَ إلاَّ فيما فيه فائدةٌ، فَكَمَا حفظُوا صلاتَهم بالخشوعِ حفظُوا أوقاتَهم عن الضياعِ وإذا كانَ مِنْ وصفِهم الإعراض عن اللَّغوِ وهو ما لا فائدةَ فيه فإعراضُهَم عما فيه مضرةٌ من باب أوْلَى.

إن المؤمنين حقاً الذين سمعوا اللغو أعرضوا عنه؛ لأنهم يعلمون أن اللغو يمحق الحسنات والأجور، فهم يعرضون عنه لذلك هم من المفلحين في الدنيا والآخرة حيث قال ﷻ:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ القصص: ٥٥، وأيضاً إذا سمعوا اللغو مروا عليه مرور الكرام ولا يبالوا به شيئاً حيث قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان: ٧٢

---

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 12).





قال البقاعي: "ولما كان كل من الصلاة والخشوع صادا عن اللغو، أتبعه قوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ ﴾ بضمائرهم التي تبعها ظواهرهم ﴿ عَنِ اللَّغْوِ ﴾ أي ما لا يعنيهم، وهو كل ما يستحق أن يسقط ويلغى ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ أي تاركون عمداً، فصاروا جامعين فعل ما يعني وترك ما لا يعني"[1]

يقول ابن عثيمين: "وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، معرضون رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه إلا في الخير كان مالكاً لأمره، فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة كفُّ ألسنتهم عن اللغو والمحرمات."[2]

ومن صفاتهم الابتعاد عن الكذب والباطل، وكل ما لا يعنيهم، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال."[3]

ومن مضار اللغو: أنه يؤدي إلى سخط الناس ومقتهم، والثرثارون بعيدون عن الله ﷻ وعن الناس، ويورد صاحبه موارد الهلاك، ودليل على خفة العقل وقلة الفهم، ومظهر من مظاهر سوء الخلق.[4]

---

[1] نظم الدرر في ترتيب الآيات والسور (13/ 107).
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (5/ 596-598)
[3] التفسير المنهجي (6/ 71)
[4] نظرة النعيم (11/ 5526)





الصفة الرابعة
أداء الزكاة المالية المفروضة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ المؤمنون: ٤

قال ابن كثير: "المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً، وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هنا زكاة النفس من الشرك والدنس، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة المال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا."[1]

يقول الطبري: "والذين هم لزكاة أموالهم التي فرضها الله سبحانه وتعالى عليهم فيها مؤدّون، وفعلهم الذي وصفوا به هو أداؤهموها"[2]

يقول وهبة الزحيلي: "وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة، ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام بالطاعات البدنية والمالية وتجنب المحرمات وما يخل بالمروءة. والمراد بالزكاة هنا المعنى وهو التزكية، فجعل المزكين فاعلين له، لأن التزكية مصدر، ويقال لمحدثه فاعل، فهو فاعل الحدث، كالضارب فاعل الضرب، والقاتل فاعل القتل، ويجوز أن يراد بالزكاة العين، أي القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، بتقدير مضاف محذوف وهو الأداء"[3]

ويقول صاحب الظلال: "والزكاة طهارة للقلب من الشح، واستعلاء على حب الذات وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر، وثقة بما عند الله عز وجل من العوض والجزاء. وطهارة للمال تجعل ما بقي منه بعدها طيباً حلالاً، وهي صيانة للجماعة من

[1] تفسير ابن كثير (3/ 238)
[2] جامع البيان للطبري (19/ 10).
[3] التفسير المنير للزحيلي (18/ 9).





الخلل الذي ينشئه العوز في جانب والترف في جانب، فهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعاً، وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال." [1]

قال البغوي: "أي: للزكاة الواجبة مؤدون، فعبر عن التأدية بالفعل لأنها فعل، وقيل: الزكاة هاهنا هو العمل الصالح، أي: والذين هم للعمل الصالح فاعلون"[2]

قال الزمخشري: "الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين: القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير والمعنى: فعل المزكي الذي هو التزكية، وهو الذي أراده الله ﷻ، فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره، لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل، تقول للضارب: فاعل الضرب، وللقاتل: فاعل القتل: وللمزكى: فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول في جميع الحوادث: من فاعل هذا؟ فيقال لك: فاعله الله ﷯ أو بعض الخلق، ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون، لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل، ولكن لأن الخلق ليسوا بفاعليها"[3]

يقول الرازي: "وفي الزكاة قولان: أحدهما: قول أبي مسلم: أن فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضي، كقوله ﷻ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ الأعلى: ١٤، وقوله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ۝٣٢﴾ النجم: ٣٢، ومن جملته ما يخرج من حق المال، وإنما سمي بذلك لأنها تطهر من الذنوب لقوله ﷻ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ

---

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2455)
[2] تفسير البغوي (3/ 359).
[3] الكشاف للزمخشري (3/ 176).





﴿ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ التوبة: ١٠٣ والثاني: وهو قول الأكثرين أنه الحق الواجب في الأموال خاصة وهذا هو الأقرب؛ لأن هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى، فإن قيل إنه لا يقال في الكلام الفصيح إنه فعل الزكاة، فإن قيل إن الله ﷻ هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة، فلم فصل هاهنا بينهما بقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾؟ قلنا لأن الإعراض عن اللغو من متممات الصلاة"[1]

يقول البيضاوي: "وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه، والزكاة تقع على المعنى والعين والمواد الأول؛ لأن الفاعل فاعل الحدث لا المحل الذي هو موقعه أو الثاني على تقدير مضاف"[2]

قال النسفي: "مؤدون وبفظ فاعلون يدل على المداومة بخلاف مؤدون وقيل الزكاة اسم مشترك يطلق على العين وهو القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير وعلى المعنى وهو فعل المزكي الذي هو التزكية وهو المراد هنا فجعل المزكين فاعلين له لأن لفظ الفعل يعم جميع الأفعال كالضرب والقتل ونحوهما تقول للضارب والقاتل والمزكي فعل الضرب والقتل والتزكية ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء ودخل اللام لتقدم المفعول وضعف اسم الفاعل عمل ألفي فإنك تقول هذا ضارب لزيد ولا تقول ضرب لزيد"[3]

---

1 التفسير الكبير للرازي (23/ 261)

2 أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 82).

3 مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (2/ 459).



وقال أبو السعود: "وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة والزكاة مصدر لأنه الأمر الصادر عن الفاعل لا المحل الذي هو موقعه، ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف"[1]

الزكاة فريضة من فرائض الإسلام وهي أحد أركانه وأهمها بعد الشهادتين والصلاة، وقد دل على وجوبها كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، فمن أنكر وجوبها فهو كافر مرتد عن الإسلام يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ومن بخل بها أو انتقص منها شيئاً فهو من الظالمين المستحقين لعقوبة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٨٠

الزكاة واجبة من واجبات الدين العظيم، وركن من أركان الإسلام القويم، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البينة: ٥

ويقول ﷺ: "وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم." [2]

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والزكاة تدخلك عليه."[3]

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 124).
[2] رواه البخاري (2/ 104)، رواه مسلم (1/ 50)
[3] المجالسة وجواهر العلم (3/ 497)، إحياء علوم الدين (1/ 226)، عيون الأخبار (2/ 394)



وصف الله ﷻ المؤمنين وأهل الإيمان أنهم يؤدون ما عليهم من صدقات وزكوات ابتغاء مرضاة الله ﷻ؛ لأن في ذلك هدى وضياء لهم وسط ظلمات الحياة، قال ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ البقرة: ١ – ٥، وقال ﷺ: "الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن – أو تملأ – ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها"[1]

والصدقة والزكاة سبب في تطهير المال وتزكيته، وتزكية وتطهير النفس أيضاً من الدنس والبخل والشح، فأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يأخذ من أموالهم صدقة كي تزكيهم وتطهرهم من كل بخل أو شح أو ذنب، حيث قال ﷻ: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ ﴾ التوبة: ١٠٣

وأما ترك دفع الزكاة لمن يستحقها فإنه يكون سبباً في محق البركة من الرزق، فالصدقة سبب في حصول الخير ونزول البركة، فالله ﷻ يضاعف لمن أدى حقه في ماله بأضعاف مضاعفة حيث قال ﷻ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ

[1] رواه مسلم (1/ 203)





وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٦١ – ٢٦٣، والصدقة سبب في حصول السعادة والوقاية من الأمراض والفتن والأحزان، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٤، كما أن الصدقة أيضاً تدفع غضب الرب ﷻ وميتة السوء قال ﷺ: "صدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر، وفعل المعروف يقي مصارع السوء."[1]، وقال أيضاً: " أن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء."[2]

كما أن الصدقة سبب للهداية والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، وحصول الخير والبركة، وسبب لتفريج الكرب وإزالة الهم والحزن، وسبب لمغفرة الذنوب وستر العيوب، وسبب في النجاة من النار، وطريق إلى دخول الجنة.

قال القاسمي: " أي للتجرد عن رذيلة البخل، قيل: السورة مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة؟ وجوابه: إن الذي فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة، وإلا فأصل

[1] شعب الإيمان (5/ 116)
[2] كنز العمال (6/ 371)





التفضل بالعفو مشروع في أوائل البعثة، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان، لعدم التبادر إليه"[1]

قال السعدي: "أي مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق ﷻ، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة"[2]

قال الشنقيطي: " قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ ، في المراد بالزكاة هنا وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم:

أحدهما: أن المراد بها زكاة الأموال، وعزاه ابن كثير للأكثرين.

الثاني: أن المراد بالزكاة هنا: زكاة النفس أي: تطهيرها من الشرك، والمعاصي بالإيمان بالله ﷻ، وطاعته وطاعة رسله عليهم السلام، وعلى هذا فالمراد بالزكاة كالمراد بها في قوله ﷻ: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ ، وقوله ﷻ: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ ﴾ الأعلى: ١٤، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ۝٢١ ﴾ النور: ٢١، وقوله ﷻ: ﴿ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ۝٨١ ﴾ الكهف: ٨١، وقوله ﷻ: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ۝٧ ﴾ فصلت: ٦ - ٧ على أحد التفسيرين، وقد يستدل لهذا القول الأخير بثلاث قرائن:

---

[1] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 281).
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 547.





القرينة الأولى: أن هذه السورة مكية، بلا خلاف، والزكاة إنما فرضت بالمدينة كما هو معلوم، فدل على أن قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ نزل قبل فرض زكاة الأموال المعروفة، فدل على أن المراد به غيرها.

القرينة الثانية: هي أن المعروف في زكاة الأموال: أن يعبر عن أدائها بالإيتاء، كقوله ﷻ: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴿٤٣﴾ ﴾ البقرة: ٤٣، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴿٧٣﴾ ﴾ الأنبياء: ٧٣ ونحو ذلك، وهذه الزكاة المذكورة هنا، لم يعبر عنها بالإيتاء، بل قال ﷻ فيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ فدل على أن هذه الزكاة: أفعال المؤمنين المفلحين، وذلك أولى بفعل الطاعات، وترك المعاصي من أداء مال.

القرينة الثالثة: أن زكاة الأموال تكون في القرآن عادة مقرونة بالصلاة، من غير فصل"[1]

يقول ابن عاشور: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ أصل الزكاة أنها اسم مصدر (زكى) المشدد، إذا طهر النفس من المذمات، ثم أطلقت على إنفاق المال لوجه الله ﷻ مجازاً؛ لأن القصد من ذلك المال تزكية النفس، أو لأن ذلك يزيد في مال المعطي، فأطلق اسم المسبب على السبب، وأصله قوله ﷻ: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ التوبة: ١٠٣، وأطلقت على نفس المال المنفق من إطلاق اسم المصدر على المفعول؛ لأنه حاصل به وهو المتعين هنا بقرينة تعليقه بـ

[1] أضواء البيان للشنقيطي (5/ 07).





﴿ فَـٰعِلُونَ ﴾ المقتضي أن الزكاة مفعول، وأما المصدر المتعين فلا يكون مفعولاً به لفعل من مادة (ف. ع. ل)؛ لأن صوغ الفعل من مادة ذلك المصدر يغني عن الإتيان بفعل مبهم ونصب مصدره على المفعولية به.

والمراد بالفعل هنا: الفعل المناسب لهذا المفعول وهو الإيتاء، فهو كقوله ﷻ: ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴿٥٥﴾ ﴾ المائدة: ٥٥، فلا حاجة إلى تقدير أداء الزكاة، وإنما أوثر هنا الاسم الأعم وهو فاعلون؛ لأن مادة (ف . ع. ل) مشتهرة في إسداء المعروف، واشتق منها الفعال بفتح الفاء، وعقب ذكر الصلاة بذكر الزكاة لكثرة التآخي بينهما في آيات القرآن، وإنما فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو للمناسبة التي سمعت آنفاً، وهذا من آداب المعاملة مع طبقة أهل الخصاصة وهي ترجع إلى آداب التصرف في المال، والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول كما تقدم آنفاً"[1]

قال البقاعي: "ولما جمع بين قاعدتي بناء التكاليف: فعل الخشوع وترك اللغو، وكان الإنسان محل العجز ومركز التقصير، فهو لا يكاد يخلو عما لا يعنيه، وكان المال مكفراً لما قصد من الإيمان فضلاً عما ذكر منها على سبيل اللغو، فكان مكفراً للغو في غير اليمين من باب الأولى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ التوبة: ١٠٣ أتبعه قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ ﴾ وأثبت اللام تقوية لاسم الفاعل فقال: ﴿ لِلزَّكَوٰةِ ﴾ أي التزكية، وهي إخراج الزكاة، أو لأداء الزكاة التي هي أعظم مصدق للإيمان ﴿ فَـٰعِلُونَ ﴾ ليجمعوا في طهارة الدين بين القلب والقالب والمال"[2]

---

[1] التحرير والتنوير (18/ 12 – 13).
[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 107).





يقول ابن عثيمين: "أي مؤدون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفوس بتركها وتجنُّبها، فأحسنوا في عبادة الخالق ﷻ، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة."[1]

"أنهم يؤدون حق الله ﷻ في أموالهم، ويخرجون زكاة هذه الأموال، ويداومون على ذلك الفعل عن طيب نفس، بلا تردد ولا تأخير."[2]

من فوائد الزكاة: أنها أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، وتطهير المال من حقوق الغير فيه، وبرهان صدق الإيمان، ووقاية للنفس من شحها، مواساة الفقراء والمحتاجين وسد حاجة المعوزين، سبب بركة المال ونمائه وخيرها وبرها راجع إلى المتصدق نفسه أولاً، وتقوية العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة كلها، بها تدفع النقم وتستجلب النعم، والفلاح مضمون لمن زكى نفسه وطهرها بالتقوى والعبادة.[3]

[1] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (5/ 599)
[2] التفسير المنهجي (6/ 71)
[3] نظرة النعيم (6/ 2216)





الصفة الخامسة
حفظ الفرج والتعفف

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾ المؤمنون: ٥ – ٧

قال القاسمي: "لأنه الحق المأذون فيه ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ أي الكاملون في العدوان المرتكبونه على أنفسهم"[1]

يقول الطبري: "والذين هم لفروج أنفسهم وعنى بالفروج في هذا الموضع: فروج الرجال، وذلك أقبالهم، ﴿ حَٰفِظُونَ ﴾ يحفظونها من أعمالها في شيء من الفروج، ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾ يقول: إلا من أزواجهم اللاتي أحلهنّ الله ﷻ للرجال بالنكاح، ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ يعني بذلك: إماءهم، و "ما" التي في قوله: ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ محل خفض، عطفاً على الأزواج، ﴿ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴾ يقول: فإن من لم يحفظ فرجه عن زوجه، وملك يمينه، وحفظه عن غيره من الخلق، فإنه غير مُوَبَّخٍ على ذلك، ولا مذمومٍ، ولا هو بفعله ذلك راكب ذنباً يلام عليه"[2]

---
[1] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 281).
[2] جامع البيان للطبري (19/ 10)



قال القشيري: "لفروجهم حافظون ابتغاء نسل يقوم بحقّ الله ﷻ، ويقال ذلك إذا كان مقصوده التعفف والتصاون عن مخالفات الإثم، ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي من جاوز قصد إيثار الحقوق، وجنح إلى جانب استيفاء الحظوظ، فقد تعدّى محلّ الأكابر، وخالف طريقتهم"[1]

يقول البغوي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾ الفرج اسم يجمع سوأة الرجل والمرأة، وحفظ الفرج التعفف عن الحرام، ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أي: من أزواجهم، على بمعنى من، ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ ، ﴿ مَا ﴾ في محل خفض يعني أو مما ملكت أيمانهم، والآية في الرجال خاصة بدليل قوله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ والمرأة لا يجوز (لها) أن تستمتع بفرج مملوكها، ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ يعني يحفظ فرجه إلا من امرأته أو أمته فإنه لا يلام على ذلك، وإنما لا يلام فيهما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان في غير المأتى، وفي حال الحيض والنفاس، فإنه محظور وهو على فعله ملوم، ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: التمس وطلب سوى الأزواج والولائد المملوكة، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ الظالمون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام"[2]

يقول وهبة الزحيلي: "أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله ﷻ عنه من زنّى أو فعل قوم لوط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله

---

[1] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 568).
[2] تفسير البغوي (5/ 410)



ﷻ لهم بالعقد، أو بملك اليمين، أي ما ملكت أيمانهم من السراري في الماضي، فمن اقتصر على الحلال، فلا لوم عليه ولا حرج، فمن طلب غير ذلك من الزوجات والإماء، فأولئك هم المتناهون في العدوان، المتجاوزون حدود الله ﷻ، وهذا يدل على تحريم المتعة والاستمناء باليد."[1]

قال ابن عطية: "وقوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ صفة العفة، وقوله ﷻ: ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ الآية، يقتضي تحريم الزنا والاستمناء ومواقعة البهائم وكل ذلك في قوله ﷻ: ﴿ وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ ويريد وراء هذا الحد الذي حد، ومعنى ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من النساء ولما كان﴿ حَافِظُونَ ﴾ بمعنى محجزون حسن استعمال عَلى، و ﴿ الْعَادُونَ ﴾ الظالم"[2]

ويقول صاحب الظلال: "وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير الحلال، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير الحلال، وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب، والبيت هو الوحدة الأولى في بناء الجماعة، والجماعة تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة في سلم البشرية، فالمقياس الذي لا يخطئ للارتقاء البشري هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها، والقرآن هنا يحدد المواضع النظيفة التي يحل للرجل أن يودعها بذور الحياة، ومسألة الزواج لا تثير شبهة ولا تستدعي جدلاً، فهي النظام المشروع المعروف، أما مسألة ملك اليمين فقد تستدعي

---

[1] التفسير المنير للزحيلي (9/ 331-332)

[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (4/ 136).





شيئاً من البيان، ولقد فصلت القول في مسألة الرق في الجزء الثاني من الظلال، وبينت أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي، واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي، فما كان يمكن والإسلام مشتبك في الحروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية في طريقه أن يلغي هذا النظام من جانب واحد، فيصبح أسارى المسلمين رقيقاً عند أعدائه، بينما هو يحرر أسارى الأعداء، فجفف الإسلام كل منابع الرق عدا أسرى الحرب إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ المؤمنون: ٧، وراء الزوجات وملك اليمين، ولا زيادة بطريقة من الطرق، فمن ابتغى وراء ذلك فقد عدا الدائرة المباحة، ووقع في الحرمات، واعتدى على الأعراض التي لم يستحلها بنكاح ولا بجهاد." [1]

فقد أمر الإسلام بحفظ الفرج من الزنا وما يشبهه، فإنه قد أوضح بجلاء لا ريب فيه الطرق الكفيلة بحماية الفرد والمجتمع من هذه الآفات المهلكة، فحث على العفة والطهارة، وأمر بغض النظر.

قال ابن القيم رضي الله عنه: "أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، فتكون نظرة ثم خطرة ثم خطوة ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات."[2]

---

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2455- 2456)

[2] الداء والدواء لابن القيم ص 232





قد جعل الله ﷻ حفظ الفرج من سمات الفلاح وعلامات الفوز في الآخرة، كما أن عدم حفظ الفرج يؤدي إلى دخول النار حيث سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: "الفم والفرج."[1]

قال السعدي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما، فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ من الإماء المملوكات ﴿ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴾ بقربهما؛ لأن الله ﷻ أحلهما، ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ غير الزوجة والسرية ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله ﷻ إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله ﷻ، وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك.

ويدل قوله ﷻ: ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ أنه يشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان"[2]

يقول الشنقيطي: " ذكر ﷻ في هذه الآيات الكريمة: أن من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس ويخلدون فيها حفظهم لفروجهم أي: من اللواط والزنى، ونحو ذلك، وبين أن حفظهم فروجهم، لا يلزمهم عن نسائهم الذين ملكوا الاستمتاع بهن

[1] رواه الترمذي (3/ 431)
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 547.





بعقد الزواج أو بملك اليمين، والمراد به التمتع بالسراري، وبين أن من لم يحفظ فرجه عن زوجه أو سريته لا لوم عليه، وأن من ابتغى تمتعاً بفرجه، وراء ذلك غير الأزواج والمملوكات فهو من العادين أي: المعتدين المتعدين حدود الله ﷻ، المجاوزين ما أحله الله ﷻ إلى ما حرمه.

وبين معنى العادين في هذه الآية قوله ﷻ في قوم لوط: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦، وهذا الذي ذكره هنا ذكره أيضاً في سورة سأل سائل؛ لأنه قال فيها في الثناء على المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ المعارج: ٢٩ - ٣١ "[1]

يقول الطنطاوي: "أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم أعفاء ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم التي أحلها الله ﷻ لهم، أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسراري، وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة إيماناً حقّاً، أن تصان فيها الأعراض، وأن يحافظ فيها على الأنساب، وأن توضع فيها الشهوات في مواضعها التي شرعها الله ﷻ وأن يغض فيها الرجال أبصارهم والنساء أبصارهن عن كل ما هو قبيح، وما وجدت أمة انتشرت فيها الفاحشة، كالزنا واللواط وما يشبههما، إلا وكان أمرها فرطاً، وعاقبتها خسراً، إذ فاحشة الزنا تؤدى إلى ضياع الأنساب، وانتشار الأمراض، وفساد النفوس من كل قيمة خلقية مقبولة، وفاحشة اللواط وما يشبهها تؤدى إلى شيوع

[1] أضواء البيان للشنقيطي (5/ 308 -309)





الفاحشة في الأمة، وإلى تحول من يأتي تلك الفاحشة من أفرادها إلى مخلوقات منكوسة، تؤثر الرذيلة على الفضيلة.

وجملة: ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ تعليل للاستثناء.

أي: هم حافظون لفروجهم، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، فإنهم غير مؤاخذين على ذلك؛ لأن معاشرة الأزواج أو ما ملكت الأيمان، مما أحله الله ﷻ، وقوله ﷻ: ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أي: فمن طلب خلاف ذلك الذي أحله الله ﷻ ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أي: المعتدون المتجاوزون حدوده ﷻ، الوالغون في الحرام الذي نهى الله ﷻ عنه"[1]

قال ابن عاشور: " الحفظ: الصيانة والإمساك، وحفظ الفرج معلوم، أي: عن الوطء، والاستثناء في قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴾ استثناء من عموم متعلقات الحفظ التي دل عليها حرف (على)، أي: حافظونها على كل ما يحفظ عليه إلا المتعلق الذي هو أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فضمن ﴿ حَافِظُونَ ﴾ معنى عدم البذل، يقال: احفظ علي عنان فرسي كما يقال: أمسك علي كما في آية أمسك عليك زوجك. والمراد: حل الصنفين من بين بقية أصناف النساء، وهذا مجمل تبينه تفاصيل الأحكام في عدد الزوجات وما يحل منهن بمفرده أو الجمع بينه، وتفاصيل الأحوال من حال حل الانتفاع أو حال عدة فذلك كله معلوم للمخاطبين، وكذلك في الإماء.

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 13 – 14).





والتعبير عن الإماء باسم ﴿ مَا ﴾ الموصولة الغالب استعمالها لغير العاقل جرى على خلاف الغالب، وهو استعمال كثير لا يحتاج معه إلى تأويل.

وقوله ﷻ: ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ تصريح بزائد على حكم مفهوم الاستثناء؛ لأن الاستثناء لم يدل على أكثر من كون عدم الحفظ على الأزواج والمملوكات لا يمنع الفلاح ، فأريد زيادة بيان أنه أيضاً لا يوجب اللوم الشرعي، فيدل هذا بالمفهوم على أن عدم الحفظ على من سواهن يوجب اللوم الشرعي ليحذره المؤمنون.

والفاء في قوله ﷻ: ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ تفريع للتصريح على مفهوم الاستثناء الذي هو في قوة الشرط فأشبه التفريع عليه جواب الشرط فقرئ بالفاء تحقيقاً للاشتراط، وزيد ذلك التحذير تقريراً بأن فرع عليه ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ لأن داعية غلبة شهوة الفرج على حفظ صاحبه إياه غريزة طبيعية يخشى أن تتغلب على حافظها، فالإشارة بذلك إلى المذكور في قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ أي: وراء الأزواج والمملوكات، أي : غير ذينك الصنفين، وذكر حفظ الفرج هنا عطفاً على الإعراض عن اللغو؛ لأن من الإعراض عن اللغو ترك اللغو بالأحرى كما تقدم آنفا؛ لأن زلة الصالح قد تأتيه من انفلات أحد هذين العضوين من جهة ما أودع في الجبلة من شهوة استعمالهما، فلذلك ضبطت الشريعة استعمالهما بأن يكون في الأمور الصالحة التي أرشدت إليها الديانة، قال ﷺ: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة"





واللوم: الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق عند الملائم، وهو مرادف العذل وأضعف من التعنيف.

و ﴿ وَرَآءَ ﴾ منصوب على المفعول به، وأصل الوراء: اسم المكان الذي في جهة الظهر، ويطلق على الشيء الخارج عن الحد المحدود تشبيها للمتجاوز الشيء بشيء موضوع خلف ظهر ذلك الشيء ؛ لأن ما كان من أعلاق الشخص يجعل بين يديه وبمرأى منه، وما كان غير ذلك ينبذ وراء الظهر، وهذا التخيل شاع عنه هذا الإطلاق بحيث يقال: هو وراء الحد، ولو كان مستقبله، ثم توسع فيه فصار بمعنى: (غير) أو (ما عدا) كما هنا، أي : فمن ابتغوا بفروجهم شيئاً غير الأزواج وما ملكت أيمانهم.

وأتي لهم باسم الإشارة في قوله ﷻ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ لزيادة تمييزهم بهذه الخصلة الذميمة ليكون وصفهم بالعدوان مشهوراً مقرراً كقوله ﷻ: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ البقرة: ١٧٧، والعادي هو: المعتدي، أي: الظالم لأنه عدا على الأمر. وتوسيط ضمير الفصل لتقوية الحكم، أي: هم البالغون غاية العدوان على الحدود الشرعية، والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول كما مر"[1]

يقول البقاعي: "ولما أشار إلى أن بذل المال على وجهه طهرة، وأن حبسه عن ذلك تلفة، أتبعه الإيماء إلى أن بذل الفرج في غير وجهه نجاسة، وحفظه طهرة. فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ ﴾ في الجماع وما داناه بالظاهر والباطن ﴿ حَٰفِظُونَ ﴾ أي دائماً لا يتبعوها شهوتها، بل هم قائمون عليها يذلونها ويضبطونها، وذكرها بعد اللغو

[1] التحرير والتنوير (18/ 13 -15).





الداعي إليها وبذل المال الذي هو من أعظم أسبابها عظيم المناسبة، ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ اللاتي ملكوا أبضاعهن بعقد النكاح، ولعلو الذكر عبر ب "على" ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ رقابة من السراري، وعبر ب ﴿ مَا ﴾ لقربهن مما لا يعقل لنقصهن عن الحرائر الناقصات عن الذكور ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي على بذل الفرج في ذلك إذا كان على وجهه، ولما كان من لم يكتفِ بالحلال مكلفاً نفسه طلب ما يضره، سبب عن ذلك قوله ﷻ معبراً بما يفهم العلاج: ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ ﴾ أي تطلب متعدياً وراء ذلك العظيم المنفعة الذي وقع استثناؤه بزنى أو لواط أو استمناء يد أو بهيمة أو غيرها ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ البعيدون من الفلاح ﴿ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي المبالغون في تعدي الحدود، لما يورث ذلك من اختلاط الأنساب، وانتهاك الأعراض، وإتلاف الأموال، وإيقاد الشر بين العباد"[1]

يقول ابن عثيمين: "ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوهما، فحفظوا فروجهم عن كل أحد إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم من الإماء المملوكة بقربهما؛ لأن الله ﷻ أحلهما، فمن ابتغى وراء ذلك غير الزوجة والسُّرية فأولئك هم العادون الذين تعدوا ما أحل الله ﷻ إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله ﷻ، وعموم هذه الآية يدل على تحريم المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك."[2]

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 108)
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (5/ 599)





"هم أعفاء كرماء، قد أحصنوا فروجهم، وصانوها عما لا يحل كالزنا، وستروا عوراتهم عن أعين الناس، أما ما أحله الله ﷻ مما بينه الله ﷻ، ولا حرج في إتيان زوجاتهم، وما ملكت أيمانهم، فلا لوم عليهم في ذلك، بل يباح لهم ذلك، وهو من شرع الله ﷻ ودينه، فمن طلب الاستمتاع في خلاف ما أحله الله ﷻ له، وسعى لقضاء الشهوة بغير ما ذكر من الزوجات والمملوكات، فهو متجاوز للحد ومعتدٍ على حدود الله ﷻ، ولهذا التجاوز آثار مدمرة، منها انتشار الأمراض كمرض الإيدز الذي قضى على ملايين الناس، الذين لم يلتزموا شرع الله ﷻ في هذا الأمر، ومنها فساد النفوس، وارتكاس الفطرة وضياع الأنساب."[1]

من فوائد حفظ الفرج: الفلاح والفوز برضوان الله ﷻ في الدنيا والآخرة، ويحفظ القلوب من التعلق بالمحرمات، ويمنع المفاسد ويؤلف القلوب، ويزيد الحسنات ويرفع الدرجات، والنية الصالحة فيه تحوله من عادة إلى عبادة.[2]

من فوائد العفة: أنه من ثمرات الأديان ونتاج الإيمان، وحفظ الجوارح عما حرم الله ﷻ وقيامها بما خلقت له، وحفظ الأعراض في الدنيا، ولذة النعيم في الآخرة، وهي ركن من أركان المروءة التي ينال بها الحمد والشرف، ونظافة المجتمع من المفاسد والمآثم، وإشاعتها في المجتمع تجعبه مجتمعاً صالحاً، ودليل كمال النفس وعزها، وصاحبها مستريح النفس مطمئن البال، ودليل وفرة العقل ونزاهة النفس"[3]

---

[1] التفسير المنهجي (6/ 72)
[2] نظرة النعيم (5/ 1664)
[3] نظرة النعيم (7/ 2888).





الصفة السادسة

أداء الأمانة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المؤمنون: 8

يقول وهبة الزحيلي: "أي والذين يحفظون حرمة الأمانة وقدسية العهد، فإذا ائتُمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانة إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، فأداء الأمانة والوفاء بالعهد صفة أهل الإيمان."[1]

والأمانة والعهد يشملان جميع ما ائتمن الإنسان عليه من ربه عز وجل أو من الناس، كالتكاليف الشرعية، والودائع، وتنفيذ العقود، وتعتبر الأمانة أعم من العهد، فكل عهد أمانة فيما فيه قول أو فعل أو معتقد.

يقول صاحب الظلال: "راعون لأماناتهم وعهدهم أفراداً وجماعة، والأمانات كثيرة في عنق الفرد وفي عنق الجماعة، وفي أولها أمانة الفطرة، وقد فطرها الله سبحانه وتعالى مستقيمة متناسقة مع ناموس الوجود الذي هي منه وإليه شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته، والمؤمنون يرعون تلك الأمانة الكبرى فلا يدعون فطرتهم تنحرف عن استقامتها، فتظل قائمة بأمانتها شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته، ثم تأتي سائر الأمانات تبعاً لتلك الأمانة الكبرى، والجماعة المسلمة مسئولة عن أماناتها العامة، مسئولة عن عهدها مع الله عز وجل، وما يترتب على هذا العهد من تبعات، والنص يجمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة وكل عهد، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون، فهي صفة دائمة لهم في كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات، وترعى

---

[1] التفسير المنير للزحيلي (9/ 332)





فيها العهود، ويطمئن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة، الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان."[1]

قال البغوي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ ﴾ قرأ ابن كثير "لأمانتهم" على التوحيد هاهنا وفي سورة المعارج، لقوله ﷻ: ﴿ وَعَهۡدِهِمۡ ﴾ والباقون بالجمع، كقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨، ﴿ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ حافظون، أي: يحفظون ما ائتمنوا عليه، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، يقومون بالوفاء بها، والأمانات تختلف فتكون بين الله ﷻ وبين العبد كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله ﷻ عليه، وتكون بين العبيد كالودائع والصنائع فعلى العبد الوفاء بجميعها"[2]

قال البيضاوي: "والذين هم لأماناتهم وعهدهم لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق، راعون قائمون بحفظها وإصلاحها"[3]

قال النسفي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ ﴾ لأمانتهم وعهدهم لأمانتهم مكى وسهل سمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً ومنه قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨، وإنما تؤدى العيون لا المعاني والمراد به العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله ﷿ ومن جهة الخلق ﴿ رَٰعُونَ ﴾ حافظون والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم"[4]

---

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2456)
[2] تفسير البغوي (5/ 410).
[3] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 83).
[4] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (2/ 460).





الأمانة تشمل كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلاً، والأمانة هي أداء الحقوق، والمحافظة عليها، فالمسلم يعطي كل ذي حق حقه؛ يؤدي حق الله ﷻ في العبادة، ويحفظ جوارحه عن الحرام، ويؤدي ما عليه تجاه الخلق. والأمانة خلق جليل من أخلاق الإسلام، وأساس من أسسه، فهي فريضة عظيمة حملها الإنسان، بينما رفضت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها لعظمها وثقلها، قال ﷻ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٢

ولقد أمرنا الله ﷻ بأداء الأمانات، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨

قال القشيري: "الأمانات مختلفة، وعند كلّ أحد أمانة أخرى، فقوم عندهم الوظائف بظواهرهم، وآخرون عندهم اللطائف في سرائرهم، ولقوم معاملاتهم، ولآخرين منازلاتهم، ولآخرين مواصلاتهم، وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم من عاهده ألا يعبد سواه، ومنهم من عاهده ألا يشهد في الكونين سواه"[1]

قال ابن عطية: "والأمانة والعهد تجمع كل ما تحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك حفظه والقيام به، والأمانة أعم من العهد، إذ كل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد، وقد تعن أمانة فيما لم يعهد فيه تقدم، وهذا إذا أخذناهما بنسبتهما إلى العبد، فإن

[1] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 568)



أخذناهما من حيث هما عهد الله ﷻ إلى عباده وأمانته التي حملهم كانا في رتبة واحدة"[1]

قال الرازي: "واعلم أنه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً، ومنه قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨، وقال ﷻ: ﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ ﴿٢٧﴾ ﴾ وإنما تؤدى العيون دون المعاني فكان المؤتمن عليه الأمانة في نفسه والعهد، ما عقده على نفسه فيما يقربه إلى ربه ﷻ ويقع أيضاً على ما أمر الله ﷻ به كقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ ﴿١٨٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٨٣، والراعي القائم على الشيء لحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال من راعي هذا الشيء؟ أي موليه، واعلم أن الأمانة تتناول كل ما تركه يكون داخلاً في الخيانة وقد قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأنفال: ٢٧، فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك؛ لأنها إما أن تخفى أصلاً كالصوم وغسل الجناية وإسباغ الوضوء أو تخفى كيفية إتيانه بها"[2]

ولقد جعل الرسول ﷺ الأمانة دليلاً على إيمان المرء وحسن خلقه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"[3]

أمر الأمانة عظيم، وخطرها كبير، فلقد استهان كثير من الناس اليوم بأمر الأمانة حتى أضحوا لا يلقون لها بالاً، ولا يقيمون لها وزناً، وذلك ناتج عن سوء فهم لمعنى الأمانة

[1] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (4/ 137).
[2] التفسير الكبير للرازي (23/ 262).
[3] مسند أحمد (21/ 231)، مصنف ابن أبي شيبة (6/ 168).



وما يترتب على تضييعها والتفريط فيها من العذاب والعقاب، ومن أسباب التفريط في الأمانة عدم تذكر ما سيحدث لمن فرط في الأمانة من العذاب والنكال في قبره من سؤال الملائكة له عما فرط فيه من الأمانة، ألا وإن من أسباب التفريط في الأمانة ضعف الوازع الديني لدي كثير من الناس، فلو كان هناك وازع من الدين يردع صاحبه ويزجره كلما هم بالتفريط فيما أوكل إليه من أمانة لعاشت الأمة في خير عظيم وأمن.

قال الكفويّ: "الأمانة: كلّ ما افترض الله ﷻ على العباد فهو أمانة كالصّلاة والزّكاة والصّيام وأداء الدّين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار، وقال في موضع آخر: كلّ ما يؤتمن عليه من أموال وحرم وأسرار فهو أمانة"[1]

وقيل: هي خلق ثابت في النّفس يعفّ به الإنسان عمّا ليس له به حقّ، وإن تهيّأت له ظروف العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإدانة عند النّاس، ويؤدّي به ما عليه أو لديه من حقّ لغيره، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضة للإدانة عند النّاس.

قال الزمخشري: "سمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً، ومنه قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨، وقال ﷻ:

﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ ﴿٢٧﴾ ﴾ وإنما تؤدى العيون لا المعاني، ويخان المؤتمن عليه، لا الأمانة في نفسها، والراعي: القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعى هذا الشيء؟ أي متوليه وصاحبه: ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله ﷻ ومن جهة الخلق، والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم"[2]

[1] الكليات للكفوي ص 176- 186

[2] الكشاف للزمخشري (3/ 177).





قال القاسمي: " ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها، والآية تحتمل العموم في كل ما اؤتمنوا عليه وعوهدوا، من جهة الله ﷻ ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم، ولذا عدت الخيانة في الأمانة من آيات النفاق"[1]

يقول السعدي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله ﷻ، والتي هي حق للعباد، قال ﷻ: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾ الأحزاب: ٧٢، فجميع ما أوجبه الله ﷻ على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ٥٨ ﴾ النساء: ٥٨، وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم ﷻ والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود، التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها"[2]

قال الشنقيطي: "ذكر ﷻ في هذه الآية الكريمة: أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس: أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم، أي: محافظون على الأمانات، والعهود، والأمانة تشمل: كل ما استودعك الله ﷻ، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها

---

[1] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 283)
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 547.



حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله ﷻ، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس، والعهود أيضا تشمل: كل ما أخذ عليك العهد بحفظه، من حقوق الله ﷻ، وحقوق الناس، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من حفظ الأمانات والعهود جاء مبيناً في آيات كثيرة، كقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨، وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأنفال: ٢٧، وقوله ﷻ في سأل سائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ المعارج: ٣٢، وقوله ﷻ في العهد: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ ﴾ الإسراء: ٣٤، وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴿١﴾ ﴾ المائدة: ١، وقوله ﷻ: ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾ ﴾ الفتح: ١٠، وقوله ﷻ: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴿٩١﴾ ﴾ النحل: ٩١، وقد أوضحنا هذا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله ﷻ: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ الأنبياء: ٧٨، وقوله ﷻ: ﴿ رَٰعُونَ ﴾ جمع تصحيح للراعي، وهو القائم على الشيء، بحفظ أو إصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، قال ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"[1]، وقرأ هذا الحرف ابن كثير

[1] صحيح البخاري (7/ 26)، صحيح مسلم (3/ 1459).





وحده: لأمانتهم بغير ألف بعد النون، على صيغة الإفراد والباقون بألف بعد النون، على صيغة الجمع المؤنث السالم"[1]

قال ابن عاشور: "﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ هذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين تنحل إلى فضيلتين هما: فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها وفضيلة الوفاء بالعهد، فالأمانة تكون غالباً من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف فيجعلها عند من يظن فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردها وبأن يجحدها ربها ﷻ، ولكون دفعها في الغالب عرياً عن الإشهاد تبعث محبتها الأمين على التمسك بها وعدم ردها ، فلذلك جعل الله ﷻ ردها من شعب الإيمان، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها قال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت[2] ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل[3] كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"[4]، وقوله: "مثقال حبة من خردل من إيمان": هو مصدر آمنه، أي: وما في قرارة نفسه من إيمان الناس إياه فلا يأتمنه إلا مغرور.

[1] أضواء البيان للشنقيطي (5/ 319 -320).
[2] الوكت: سواد يكون في قشر التمر.
[3] والمجل: انتفاخ في الجلد الرقيق يكون شبه قشر العنبة ينشأ من مس النار الجلد ومن كثرة العمل باليد
[4] صحيح البخاري (9/ 52)، صحيح مسلم (1/ 126).





وقد تقدم الكلام على الأمانة في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ٥٨﴾ النساء: ٥٨، وجمع (الأمانات) باعتبار تعدد أنواعها وتعدد القائمين بالحفظ تنصيصاً على العموم، وقرأ الجمهور: (لأماناتهم) بصيغة الجمع، وقرأه ابن كثير (لأمانتهم) بالإفراد باعتبار المصدر مثل الذين هم في صلاتهم خاشعون.

والعهد: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهداً؛ لأنهم يتحالفان بعهد الله ﷻ، أي: بأن يكون الله ﷻ رقيباً عليهما في ذلك لا يفيتهم المؤاخذة على تخلفه، وتقدم عند قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ ٢٧﴾ البقرة: ٢٧، والوفاء بالعهد من أعظم الخلق الكريم لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة، فإن المرأين قد يلتزم كل منهما للآخر عملاً عظيماً فيصادف أن يتوجه الوفاء بذلك الالتزام على أحدهما فيصعب عليه أن يتجشم عملاً لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو، فتسول له نفسه الختر بالعهد شحاً أو خوراً في العزيمة، فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس، قال ﷻ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ الإسراء: ٣٤، والرعي: مراقبة شيء بحفظه من التلاشي وبإصلاح ما يفسد منه، فمنه رعي الماشية، ومنه رعي الناس، ومنه أطلقت المراعاة على ما يستحقه ذو الأخلاق الحميدة من حسن المعاملة، والقائم بالرعي: راعٍ، فرعي الأمانة: حفظها، ولما كان الحفظ مقصوداً لأجل صاحبها كان ردها إليه أولى من حفظها، ورعي العهد مجاز، أي: ملاحظته عند كل مناسبة، والقول في تقديم ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾ على ﴿رَٰعُونَ﴾ كالقول في نظائره السابقة،





وكذلك إعادة اسم الموصول، والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد؛ لأن العهد كالأمانة؛ لأن الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد، وذكرهما عقب أداء الزكاة؛ لأن الزكاة أمانة الله ﷻ عند الذين أنعم عليهم بالمال، ولذلك سميت: حق الله ﷻ، وحق المال، وحق المسكين"[1]

يقول البقاعي: "ولما كان ذلك من الأمانات العظيمة، أتبعه عمومها فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ ﴾ أي في الفروج وغيرها، سواء كانت بينهم وبين الله ﷻ كالصلاة والصيام وغيرهما، أو في المعاني الباطنة كالإخلاص والصدق، أو بينهم وبين خلق كالودائع والبضائع، فعلى العبد الوفاء بجميعها، ولما كان العهد أعظم أمانة، تلاها به تنبيهاً على عظمه فقال: ﴿ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ أي الحافظون بالقيام والرعاية والإصلاح"[2]

يقول ابن عثيمين: "أي مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات، التي هي حق الله ﷻ، والتي هي حق للعباد، فجميع ما أوجبه الله ﷻ على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال، والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين، وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها."[3]

[1] التحرير والتنوير (18/ 15 – 17).
[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 109)
[3] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (5/ 599)





"أنهم يؤدون الأمانات، يوفون بعهدهم مع الله ﷻ ومع الناس، وهذان اللفظان الأمانة والعهد يشملان كل ما يقوم به الإنسان من أمور دينه ودنياه، من تكاليف والتزامات وعقود وعبادات ينبغي رعايتها والوفاء بها، فالمؤمن يحفظ الأمانة، ويؤديها إلى أهلها، ويصون العهد ولا ينقصه."[1]

من فوائد الأمانة: أنها من كمال الإيمان وحسن الإسلام، وهي محور الدين وامتحان رب العالمين ﷻ، وبه يحفظ الدين والأعراض والأموال والأرواح.[2]

---

[1] التفسير المنهجي (6/ 72)

[2] نظرة النعيم (3/ 524)





الصفة السابعة
المحافظة على الصلاة

قَالَ تعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ ﴾ المؤمنون: ٩

يقول وهبة الزحيلي: "أي والذين يواظبون على الصلاة ويؤدونها في أوقاتها، مع استكمال أركانها وشروطها، فعن ابن مسعود ﷺ قال: "سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله، قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي، قال: برّ الوالدين، قلت: ثم أي، قال: الجهاد في سبيل الله."[1]"[2]

وقد افتتح الله ﷻ ذكر الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، قال ﷺ: "استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن أفضل أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الصلاة إلا مؤمن." [3]

وتكون المحافظة على الصلاة بإقامتها والمبادرة إليه أوائل أوقاتها، وإتمام ركوعها وسجودها.

قال البغوي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ ﴾ قرأ حمزة والكسائي "صلاتهم" على التوحيد، والآخرون صلواتهم على الجمع، ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ أي: يداومون على حفظها ويراعون أوقاتها، كرر ذكر الصلاة ليبين أن المحافظة عليها واجبة كما أن الخشوع فيها واجب"[4]

---

[1] رواه البخاري (1/ 112)
[2] التفسير المنير للزحيلي (9/ 332)
[3] المعجم الكبير للطبراني (7/ 25)
[4] تفسير البغوي (5/ 410).





يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخراً؟ قلت: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم، وآخراً بالمحافظة عليها، وذلك أن لا يسهوا عنها، ويؤدوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها، وأيضاً فقد وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت، وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها: وهي الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة، والعيدين والجنازة، والاستسقاء، والكسوف والخسوف، وصلاة الضحى، والتهجد وصلاة التسبيح، وصلاة الحاجة، وغيرها من النوافل"[1]

قال البيضاوي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، ولفظ الفعل فيه لما في الصلاة من التجدد والتكرر ولذلك جمعه غير حمزة والكسائي، وليس ذلك تكريراً لما وصفهم به أولاً، فإن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها، وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيم لشأنها"[2]

قال النسفي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ ﴾ صَلاتِهِمْ كوفي غير أبي بكر ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ يداومون في أوقاتها وإعادة ذكر الصلاة لأنها أهم ولأن الخشوع فيها غير المحافظة عليها أو لأنها وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أية صلاة كانت وجمعت آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل"[3]

---

[1] الكشاف للزمخشري (3/ 177)
[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 83).
[3] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (2/ 460).





ويقول صاحب الظلال: "فلا يفوتونها كسلاً، ولا يضيعونها إهمالاً، ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي أن تقام، إنما يؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن، مستوفية الأركان والآداب، حية يستغرق فيها القلب، وينفعل بها الوجدان، والصلاة صلة ما بين القلب والرب ﷻ، فالذي يحافظ عليها لا ينتظر أن يحافظ على صلة ما بينه وبين الناس محافظة حقيقية مبعثها صدق الضمير، ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الإيمان، بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله ﷻ، تلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح، وهي خصائص ذات أثر حاسم في تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التي تحياها."[1]

أن مقام الصلاة عظيم، وقدرها عند الله عز وجل كبير، ولهذا فرضها وشرعها من فوق سبع سماوات، فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وعموده الذي لا يقوم إلاّ به، وهي الفارقة بين الإسلام والكفر، والفاصلة بين الإيمان والشرك، قال ﷺ: "بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة"[2]، وقال ﷺ: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر"[3]

قال الشوكاني: "والمحافظة على الصلاة: إقامتها والمحافظة عليها في أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من أذكارها"[4]

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2457)
[2] رواه مسلم (1/ 88)
[3] رواه ابن ماجه (1/ 342)
[4] فتح القدير للشوكاني (3/ 562).





وتعتبر الصلاة خير عون في الدنيا والدين، قال ﷻ: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ﴾ البقرة: ٤٥، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣ ﴾ البقرة: ١٥٣

فإن الصلاة هي آكد الفروض بعد الشهادتين وأفضلها، وأحد أركان الإسلام الخمسة، وهي عمود الدين الذي لا يقوم إلا به، وهي الشعيرة الباقية عبر الرسالات، والصلاة عبادة تحقق دوام ذكر الله ﷿،والقربى من جنابه، وتمثل تمام الطاعة والاستسلام لله ﷿، والتجرد لله ﷿ وحده، وتربي النفس على معاني التقوى والإنابة والصبر والتوكل والجهد، وتهيئ المؤمن لحياة صالحة بين جماعة المؤمنين، بل إن الصلاة أساس شخصية المسلم، فبها يطهر قلبه، ويتعمق إيمانه، وتتّصل روحه بالملأ الأعلى، وتنظّم أموره، فتقوى لديه دوافع البر والإحسان والصلاح وفعل الخيرات.

وهي النور والبرهان والنجاة للمؤمن في الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: "من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ، ولا برهانٌ، ولا نجاةٌ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبيّ بن خلف."[1]

فالصلاة هي الوسيلة العظمى في تزكية النفس، وهي في الوقت نفسه علم وميزان على تزكية النفس، فهي وسيلة وغاية بآن واحد، فهي تعميق لمعاني العبودية والتوحيد والشكر، وهي ذكر وقيام وركوع وسجود وقعود، فهي إقامة للعبادة في الهيئات الرئيسة لوضع الجسد، وإقامتها قطع لدابر الكبر والتمرد على الله ﷿ واعتراف لله ﷻ

[1] مسند أحمد (11/ 141)





بالربوبية والتدبير، فإقامتها على كمالها وتمامها قطع لدابر العجب والغرور بل قطع لدابر المنكر كلّه والفحشاء كّلها، وإن ما تكون الصلاة كذلك إذا أقيمت بأركانها وسننها وتحقق صاحبها بأدب الظاهر والباطن، ومن آداب الظاهر أداؤها كاملة بالجوارح، ومن آداب الباطن الخشوع فيها، والخشوع هو الذي يجعل للصلاة الدور الأكبر في التطهير، والدور الأكبر في التحقق والتخّلق، وتزكية النفس تدور حول هذا. الصلاة مدرسة تربوية كبر ى يتعلم فيها المسلم معاني الخشية والمراقبة، وحسن العبادة والتبتل، والتراحم والتآلف، والالتزام والنظام، إلى غير ذلك من الدروس التربوية التي تصلح أن تكون منهج حياة للمسلم، منهجاً يسير عليه ويجنى ثماره في الدنيا والآخرة كما أن الصلاة نفحات ورحمات وهبات وبركات، ودليل إيمان وصدق يقين وإسلام، فهي مفتاح كل خير وسبيل كل بر، فضلها عظيم وخيرها عميم، ومكانتها وأهميتها لا تحصى، فالمحافظة عليها وأدائها كاملة في وقتها دليل على محبة العبد لربه ﷻ واعترافاً منه بنعمته عليه، والمحبة جزاؤها المحبة، والإحسان ثمرته الإحسان، قال ﷻ: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ آل عمران: ٣٩

والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهي تعالج النفس البشرية من نوازع الشر حتى تصفو من الرذائل ويبتعد صاحبها عن كل منكر، قال ﷻ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٥



قال القاسمي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يحافظون عليها، وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدّوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها، وليس هذا تكريراً لما وصفهم به أولاً، فإن الخشوع في الصلاة، غير المحافظة عليها، وتقديم الخشوع اهتماماً به، حتى كأن الصلاة، لا يعتد بها بدونه، أو لعموم هذا له، وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة، تعظيم لشأنها"[1]

قال السعدي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص"[2]

قال الشنقيطي: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ ذكر ﷻ في هذه الآية الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس: أنهم يحافظون على صلواتهم والمحافظة عليها تشمل إتمام أركانها، وشروطها، وسننها، وفعلها في أوقاتها في الجماعات في المساجد، ولأجل أن ذلك من أسباب نيل الفردوس أمر ﷻ بالمحافظة عليها في قوله ﷻ: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ٢٣٨ ﴾ البقرة: ٢٣٨، وقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤ ﴾ المعارج: ٣٤، وقال ﷻ: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ ﴾ المعارج: ٢٢ - ٢٣، وذم وتوعد من لم يحافظ عليها في قوله ﷻ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ

[1] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 283).
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 547.





ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ مريم: ٥٩، وقوله ﷻ: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الماعون: ٤ - ٥، وقال ﷻ في ذم المنافقين: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ النساء: ١٤٢، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ: "أي العمل أحب إلى الله؟ قال الصلاة على وقتها[1]"[2]

قال ابن عاشور: "﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ ثناء على المؤمنين بالمحافظة على الصلوات، أي بعدم إضاعتها أو إضاعة بعضها، والمحافظة مستعملة في المبالغة في الحفظ إذ ليست المفاعلة هنا حقيقية كقوله ﷻ: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٣٨، وجيء بالصلوات بصيغة الجمع للإشارة إلى المحافظة على أعدادها كلها تنصيصاً على العموم .

وإنما ذكر هذا مع ما تقدم من قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ ؛ لأن ذكر الصلاة هنالك جاء تبعاً للخشوع فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار في الذهن؛ لأنها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات، وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويها بها ورداً للعجز على الصدر تحسيناً للكلام الذي ذكرت فيه تلك الصفات لتزداد النفس قبولاً لسماعها ووعيها فتتأسى بها.

---

[1] صحيح البخاري (8/ 2)، صحيح مسلم (1/ 90).
[2] أضواء البيان للشنقيطي (5/ 320).





والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول وإضافة الصلوات إلى ضميرهم مثل القول في نظيره ونظائره، وقرأ الجمهور: على صلواتهم بصيغة الجمع، وقرأه حمزة والكسائي وخلف (على صلاتهم) بالإفراد.

وقد جمعت هذه الآية أصول التقوى الشرعية؛ لأنها أتت على أعسر ما تراض له النفس من أعمال القلب والجوارح، فجاءت بوصف الإيمان وهو أساس التقوى لقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴿١٧﴾ ﴾ البلد: ١٧، وقوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴿٣٩﴾ ﴾ النور: ٣٩، ثم ذكرت الصلاة وهي عماد التقوى والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر لما فيها من تكرر استحضار الوقوف بين يدي الله ﷻ ومناجاته.

وذكرت الخشوع وهو تمام الطاعة؛ لأن المرء قد يعمل الطاعة للخروج من عهدة التكليف غير مستحضر خشوعاً لربه ﷻ الذي كلفه بالأعمال الصالحة، فإذا تخلق المؤمن بالخشوع اشتدت مراقبته ربه ﷻ فامتثل واجتنب، فهذان من أعمال القلب.

وذكرت الإعراض عن اللغو، واللغو من سوء الخلق المتعلق باللسان الذي يعسر إمساكه فإذا تخلق المؤمن بالإعراض عن اللغو فقد سهل عليه ما هو دون ذلك، وفي الإعراض عن اللغو خلق للسمع أيضاً كما علمت، وذكرت إعطاء الصدقات وفي ذلك مقاومة داء الشح ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، وذكرت حفظ الفرج، وفي ذلك خلق مقاومة اطراد الشهوة الغريزية بتعديلها وضبطها والترفع بها عن حضيض مشابهة البهائم فمن تخلق بذلك فقد صار كبح الشهوة ملكة له وخلقاً، وذكرت أداء الأمانة وهو مظهر للإنصاف وإعطاء ذي الحق حقه ومغالبة شهوة



النفس لأمتعة الدنيا، وذكرت الوفاء بالعهد وهو مظهر لخلق العدل في المعاملة والإنصاف من النفس بأن يبذل لأخيه ما يحب لنفسه من الوفاء، وذكرت المحافظة على الصلوات وهو التخلق بالعناية والوقوف عند الحدود والمواقيت وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقاً راسخاً.

إذا تأملت هذه الخصال وجدتها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله مثل الصلاة والخشوع وترك اللغو وحفظ الفرج وحفظ العهد، وإلى بذل ما من شأن النفوس إمساكه مثل الصدقة وأداء الأمانة، فكان في مجموع ذلك أعمال ملكتي الفعل والترك في المهمات، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها"[1]

قال البقاعي: "ولما كانت الصلاة أجل ما عهد فيه من أمر الدين وآكد، وهي من الأمور الخفية التي وقع الائتمان عليها، لما خفف الله ﷻ فيها على هذه الأمة بإيساع زمانها ومكانها، قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ ﴾ التي وصفوا بالخشوع فيها ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يجددون تعهدها بغاية جدهم، لا يتركون شيئاً من مفروضاتها ولا مسنوناتها، ويجتهدون في كمالاتها، وحدت في قراءة حمزة والكسائي للجنس، وجمعت عند الجماعة إشارة إلى أعدادها وأنواعها، ولا يخفى ما في افتتاح هذه الأوصاف واختتامها بالصلاة من التعظيم لها، كما قال ﷺ: "واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة[2]"[3]

يقول الطنطاوي: "أما الصفة الأخيرة من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين، فهي قوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي: أن من صفاتهم أنهم يحافظون

---

[1] التحرير والتنوير (18/ 18 – 19)
[2] مسند أحمد (37/ 110)، سنن الدارمي (1/ 519)، سنن ابن ماجه (1/ 101).
[3] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 109)





على الصلوات التي أمرهم الله ﷻ بأدائها محافظة تامة، بأن يؤدوها في أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع، ولقد بدأ ﷻ صفات المؤمنين المفلحين بالخشوع في الصلاة وختمها بالمحافظة عليها للدلالة على عظم مكانتها، وسمو منزلتها"[1]

ويقول ابن عثيمين: "أي يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع في الصلاة، وبالمحافظة عليها؛ لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص"[2]

ويقول عائض القرني: "والذين يؤدون الصلاة على أكمل وجه كما شُرعت في هيئاتها وأوقاتها ولا يضيعونها."[3]

أنهم يحافظون على الصلاة فيؤدونها في أوقاتها، ويواظبون عليها، ويعنون بأمرها، ولا ينسون مواعيدها، ويقيمون أركانها وشروطها على الوجه التام، ويلاحظ أن هذه الصفات بدأت بالخشوع في الصلاة، وختمت بالمحافظة عليها، وهذا دليل على عظم مكانتها وأهميتها، ودورها في تحصيل باقي الصفات."[4]

من فوائد الصلاة: حضور القلب واستشعار عظمة الله ﷻ في الصلاة، وهي راحة للنفس، وهي قرة عين المؤمن، وصلة بين العبد وربه ﷻ، وتذكر العبد بدوام مراقبته لله ﷻ فيحسن باطنه كما يحسن ظاهره، وتوحيد اتجاه جميع المصلين إلى بيت الله الحرام، وتكرر الصلاة يكون تطهيراً روحياً للمسلم يتطهر بها من غفلات قلبه وزلات لسانه ومقترفات جوارحه.[5]

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 14 – 15).
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (5/ 599- 600)
[3] التفسير الميسر/ عائض القرني ص398
[4] التفسير المنهجي (6/ 72)
[5] نظرة النعيم (6/ 2584)





جزاء المؤمنين المفلحين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ المؤمنون: ١٠ – ١١

يقول وهبة الزحيلي: "أي أولئك البعيدون في درجات الكمال المتصفون بهذه الصفات الحميدة هم المستحقون النزول في جنات الفردوس، الماكثون فيها أبداً على الدوام، وهذا قانون الله ﷻ من حيث العدل أن الجنة جزاء العمل الحسن في الدنيا، ومجموع الأخذ بهذه الصفات السبع محقق لهذا الفوز في عالم الآخرة."[1]

فمن يعمل بهذه الصفات، فهم الوارثون الذين يرثون فراديس الجنان، وينزلون فيها منزلاً كريماً، ويخلدون فيها على الدوام والبقاء.

يقول ابن عطية: "﴿ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ يريد الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويحصل الكفار في مساكنهم في النار، ويحتمل أن يسمي سبحانه وتعالى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصلوها دون غيرهم، فهو اسم مستعار على الوجهين، ﴿ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ مدينة الجنة وهي جنة الأعناب، واللفظة، فيما قال مجاهد، رومية عربت، والعرب تقول للكروم فراديس، وقال رسول الله ﷺ لأم حارثة: "إنها جنان كثيرة وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى[2]"[3]

---

[1] التفسير المنير للزحيلي (9/ 333)
[2] السنن الكبرى للنسائي (7/ 341)
[3] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (4/ 137).





قال القشيري: "الإرث على حسب النّسب، وفى استحقاق الفردوس بوصف الإرث لنسب الإيمان في الأصل، ثم الطاعات في الفضل، وكما في استحقاق الإرث تفاوت في مقدار السهمان: بالفرض أو بالتعصيب- فكذلك في الطاعات فمنهم من هم في الفردوس بنفوسهم، وفى الأحوال اللطيفة بقلوبهم، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا عن حالات قلوبهم"[1]

قال البيضاوي: " أولئك الجامعون لهذه الصفات، هم الوارثون الأحقاء بأن يسموا وراثاً دون غيرهم، ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً، وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعده مبالغة فيه، وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم؛ لأنه ﷻ خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أنث الضمير؛ لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا"[2]

قال الزمخشري: " أي ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ الأحقاء بأن يسموا ورّاثاً دون من عداهم، ثم ترجم الوارثين بقوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر، ومعنى الإرث: ما مرّ في سورة مريم، أنث الفردوس على تأويل الجنة، وهو: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر، روى أنّ الله ﷿ بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من

[1] لطائف الإشارات للقشيري (2/ 569).
[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (4/ 83).





فضة، وجعل خلالها المسك الأذفر، وفي رواية: ولبنة من مسك مذرّى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان"[1]

قال القاسمي: "﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي الجامعون لهذه الأوصاف ﴿ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ أي الجنة ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي لا يخرجون منها أبداً"[2]

ويقول صاحب الظلال: "وتلك هي غاية الفلاح الذي كتبه الله ﷻ للمؤمنين، وليس بعدها غاية تمتد إليها عين أو خيال"[3]

قال ابن تيمية رحمه الله: "أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة وذلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم، وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال إذا لو كان فيهما ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها؛ لأن الجنة تنال بفعل الواجبات دون المستحبات، ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب، وإذا كان الخشوع في الصلاة واجباً، فالخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعاً."[4]

إن الجنة لا تُنال ولا تورث بالحسب والنسب، ولا بالجاه والسلطان، ولا بالمال، وإنما بالإيمان والتقوى، والعمل الصالح، وأهل الجنة هم الذين عملوا في هذه الدار ليفوزوا برضا الرحمن سبحانه وتعالى، ويحوزوا قصب السبق في دخول الجنات ليقولوا بعد ذلك:

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ٧٤ ﴾ الزمر: ٧٤

---

[1] الكشاف للزمخشري (3/ 177 – 178).
[2] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 283).
[3] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2457)
[4] مجموع الفتاوي لابن تيمية (33/ 554)





يقول السعدي: " ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يظعنون عنها ولا يبغون عنها حولاً لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص"[1]

يقول الشنقيطي: "﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ذكر ﷻ في هذه الآية الكريمة: أن المؤمنين المتصفين بالصفات، التي قدمنا هم الوارثون، وحذف مفعول اسم الفاعل الذي هو الوارثون؛ لدلالة قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ عليه، والفردوس: أعلى الجنة، وأوسطها، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن ﷻ، وعبر ﷻ عن نيل الفردوس هنا باسم الوراثة.

وقد أوضحنا معنى الوراثة والآيات الدالة على ذلك المعنى، كقوله ﷻ: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ٦٣ ﴾ مريم: ٦٣، وقوله ﷻ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٣ ﴾ الأعراف: ٤٣، وقوله ﷻ: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 547.





﴿ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ ﴾ الزمر: ٧٤، في سورة مريم في الكلام على قوله ﷻ: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣ ﴾ مريم: ٦٣، فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وقرأ هذا الحرف: حمزة والكسائي: على صلاتهم بغير واو، بصيغة الإفراد وقرأ الباقون: على صلواتهم بالواو المفتوحة بصيغة الجمع المؤنث السالم والمعنى واحد؛ لأن المفرد الذي هو اسم جنس، إذا أضيف إلى معرفة، كان صيغة عموم كما هو معروف في الأصول، وقوله هنا: ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، أي: بلا انقطاع أبداً، كما قال ﷻ: ﴿ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨ ﴾ هود: ١٠٨ أي: غير مقطوع، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤ ﴾ ص: ٥٤، وقال ﷻ: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ ٩٦ ﴾ النحل: ٩٦ "[1].

يقول ابن عاشور: "جيء لهم باسم الإشارة بعد أن أجريت عليهم الصفات المتقدمة ليفيد اسم الإشارة أن جدارتهم بما سيذكر بعد اسم الإشارة حصلت من اتصافهم بتلك الصفات على نحو قوله ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ٥ ﴾ البقرة: ٥ بعد قوله ﷻ: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾ البقرة: ٢ والمعنى: أولئك هم الأحقاء بأن يكونوا الوارثين بذلك، وتوسيط ضمير الفصل لتقوية الخبر عنهم بذلك، وحذف معمول ﴿ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ ليحصل إبهام وإجمال فيترقب السامع بيانه، فبين بقوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ قصداً لتفخيم هذه الوراثة، والإتيان في البيان باسم الموصول الذي شأنه

[1] أضواء البيان للشنقيطي (5/ 321).





أن يكون معلوماً للسامع بمضمون صلته إشارة إلى أن تعريف ﴿ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ تعريف العهد كأنه قيل: هم أصحاب هذا الوصف المعروفون به.

واستعيرت الوراثة للاستحقاق الثابت؛ لأن الإرث أقوى الأسباب لاستحقاق المال، قال ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الزخرف: ٧٢

والفردوس: اسم من أسماء الجنة في مصطلح القرآن، أو من أسماء أشرف جهات الجنات، وأصل الفردوس: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر، وفي الحديث أن النبيء ﷺ قال لأم حارثة بن سراقة لما أصابه سهم غرب يوم بدر فقتله وقالت أمه: إن كان في الجنة أصبر وأحتسب، فقال لها: ويحك أهبلت؟ أو جنة واحدة هي؟ إنها لجنان كثيرة وإنه لفي الفردوس[1]"[2]

يقول البقاعي: "ولما ذكر مجموع هذه الأوصاف العظيمة، فخم جزاءهم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي البالغون من الإحسان أعلى مكان ﴿ هُمُ ﴾ خاصة ﴿ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ أي المستحقون لهذا الوصف المشعر ببقائهم بعد أعدائهم فيرثون دار الله ﷻ لقربهم منه واختصاصهم به بعد إرثهم أرض الدنيا التي قارعوا عليها على قتلهم وضعفهم أعداءنا الكفار على كثرتهم وقوتهم، فكانت العاقبة فيها لهم كما ﴿ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ، ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴿١٤﴾ ﴾ إبراهيم: ١٣ - ١٤

[1] السنن الكبرى للنسائي (7/ 341)
[2] التحرير والتنوير (18/ 20 – 21)





﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ التي هي أعلى الجنة، وهي في الأصل البستان العظيم الواسع، يجمع محاسن النبات والأشجار من العنب وما ضاهاه من كل ما يكون في البساتين والأودية التي تجمع ضروباً من النبت: فيحوزون منها بعد البعث ما أعد الله ﷻ لهم فيها من المنازل وما كان أعد للكفار لو آمنوا أو لم يخرجوا بخروج أبويهم من الجنة ﴿ هُمۡ ﴾ خاصة ﴿ فِيهَا ﴾ أي لا في غيرها ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ وهذه الآيات أجمع ما ذكر في وصف المؤمنين، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: "اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا" ثم قال: "لقد أنزلت علي عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة" ثم قرأ علينا: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ﴾ المؤمنون: ١ حتى ختم العشر آيات[1]"[2]

قال أبو السعود: " ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات، وإيثارها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار إليه حساً، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ أي: الأحقاء بأن يسموا وراثاً دون من عداهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمهما ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد

---

[1] مسند أحمد (1/ 350)، رواه الترمذي (5/ 326)
[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (13/ 109 – 110).





إطلاقها وتفسير لها بعد إبهامها تفخيماً لشأنها ورفعاً لمحلها، وهي استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم لأنه ﷻ خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ﴿ هُمْ فِيهَا ﴾ أي: في الفردوس، والتأنيث لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا، وهو البستان الجامع لأصناف الثمر، روي أنه ﷻ بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الأذفر، وفي رواية: ولبنة من مسك مذري وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان ﴿ خَـٰلِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها أبداً، والجملة إما مستأنفة مقررة لما قبلها، وإما حال مقدرة من فاعل "يرثون" أو مفعوله، إذ فيها ذكر كل منهما، ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها"[1]

قال الطنطاوي: "بعد ذلك بين ﷻ ما أعد لهم من حسن الثواب فقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

والفردوس: أعلى الجنات وأفضلها وهو لفظ عربي يجمع على فراديس، وقيل: هو لفظ معرب معناه: الذي يجمع ما في البساتين من ثمرات، وعن النبي ﷺ أنه قال: "إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة"[2]

أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة، هم الجديرون بالفلاح فإنهم يرثون أعلى الجنات وأفضلها، وهم فيها خالدون خلوداً أبديّاً لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب.

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (6/ 125)
[2] رواه البخاري (9/ 125)





وعبر ﷻ عن حلولهم في الجنة بقوله ﴿ يَرِثُونَ ﴾ للإشعار بأن هذا النعيم الذي نزلوا به، قد استحقوه بسبب أعمالهم الصالحة، كما يملك الوارث ما ورثه عن غيره. ومن المعروف أن ما يملكه الإنسان عن طريق الميراث يعتبر أقوى أسباب الملك.

وشبيه بهذه الآية قوله ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الزخرف: ٧٢، وقوله ﷻ: ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الأعراف: ٤٣، وحذف مفعول اسم الفاعل الذي هو ﴿ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ لدلالة قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ عليه.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المؤمنين الصادقين مدحاً عظيماً ووعدتهم بالفوز بأعلى الجنات وأفضلها، وذلك فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء والله ﷻ ذو الفضل العظيم"[1]

ويقول ابن عثيمين رحمه الله: "أولئك الموصوفون بتلك الصفات هم أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم في مراتبهم، كل بحسب حاله، لا يظعنون عنها، ولا يبغون عنها حِوَلاً؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص."[2]

"هؤلاء المؤمنون الذين تحلوا بهذه الصفات الطيبة النبيلة يستحقون أن يكونوا وارثين لنعيم الجنة بحق، حاصلين عليه بسبب التزامهم بما أُمروا به، فإنهم سيكونون في أعلى

[1] التفسير الوسيط للطنطاوي (10/ 15)
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (5/ 600)





درجات الجنة وأحسنها، وسيكون مكثهم فيها دائماً لا ينقطع، ولا يزول، وهذا كله برحمة الله ﷻ الذي آمنوا به واتبعوا شريعته."[1]

فلنتصف بهذه الصفات الإيمانية الرائعة لنفوز ونفلح في الدنيا والآخرة، وكلما اتصف الإنسان بهذه الصفات جميعاً كلما كانت مكانته ومنزلته عند الله ﷻ أقرب، ومن وفى؛ وفى الله ﷻ له، ومن زاد؛ زاد الله ﷻ له.

[1] التفسير المنهجي (6/ 72- 73)





الخلاصة

هذه آيات جامعة لخصال نافعة من خصال الخير التي يحصل بها الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، فقد جمعت هذه الآيات الكريمة بين حق الخالق ﷻ وحق المخلوق، وبين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وبين الأعمال اللازمة والأعمال المتعدية.

وتضمنت هذه الآيات المنيرات أسبابَ الفوز باجتماعها في أعمال صالحة عظيمة وهي: المحافظة على الصلاة الخاشعة، والإعراض عما لا ينفع من القول والعمل، وحفظ الفروج عن الحرام، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود، ثم ختمت الآيات بذكر الجزاء الحسن لأهل هذه الأعمال الحسنة، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

المؤمنون: ١٠ - ١١

ولقد افتتح الله ﷻ هذه الصفات بحرف(قد) الداخلِ على الفعل الماضي، وفائدة هذا الحرف التحقيق والتأكيد بأن الفلاح قد حصل وتمّ لمن تمسك من المؤمنين بهذه الأعمال الصالحة؛ ابتغاء وجه الله ﷻ ومات على ذلك.

ومن حُسن الافتتاح لهذه الصفات والترغيب في التحلي بها: أنه ذكر الفلاح بها أولاً قبل أن يذكرها؛ لكي يرغبك أيها الإنسان في التمسك بها حتى تنال ذلك الجزاء المقدَّم ألا وهو الفلاح.

إن هذه الصفات التي توصل إلى الفلاح والجنة لا يصح أن تكون إلا لمن اتصف بالإيمان الذي هو التصديق الجازم الذي لا يخالطه شك بكل ما يجب اعتقاده من الإيمان بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ثم تجيء الأعمال الصالحة بعد ذلك؛ ليكتمل سبباً الفلاح؛ إذ لابد من إيمان وعمل صالح،





صفاء في الباطن، وصفاء في الظاهر، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ ﴾ الكهف: ١٠٧

وإن أولى هذه الصفات لأهل الإيمان الذين نالوا بها الفلاح والفوز بالفردوس: **الصلاة الخاشعة**، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ ﴾ المؤمنون: ٢

الصلاة تلك العبادة العظيمة التي هي صلة بين العبد وربه ﷻ لبُّها الخشوع وهو الخوف الموجب لتعظيم الله ﷻ، والخشوع بهذا المعنى مطلوب داخل الصلاة وخارجها، لكنه في الصلاة يكون أولى من غيرها؛ لأنها وقوف بين يدي الله ﷻ، إن الخشوع عبادة قلبية تظهر آثارها على أعمال الجوارح، ففي الصلاة يحرص المؤمن الخاشع على إقامة الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، ويحرص على أن يكون حاضرَ القلب والذهن بين يدي ربه ﷻ، واعيًا متدبراً ما يقرأ أو يسمع، ويكون بذلك مستفيداً من الصلاة بعد ذلك، قال ﷻ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥ ﴾ العنكبوت: ٤٥، ومما يعين المصليَ على الخشوع في الصلاة: أن يستحضر أنه بين يدي ملك الملوك ﷻ، وأن يستشعر أنها قد تكون آخر صلاة يصليها فليتقنها، وأن يبعد عن نفسه كل ما يشغله عنها من الشواغل الحسية والشواغل المعنوية.

فالخشوعَ الخشوعَ تفلحوا وتلتذوا بصلاتكم.

والصفة الثانية: الإعراض عن الباطل من قول أو فعل، قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ ﴾ المؤمنون: ٣، ومثل هذه الآية قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا





سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ القصص: ٥٥، وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان: ٧٢، إن أهل الإيمان حريصون على عدم مواقعة ما يضر آخرتهم، فهم مشغولون بالله ﷻ عن غيره، مهتمون بما يعنيهم، وتاركون لما لا يعنيهم، مقبلون على شأنهم، فأكثر الناس في شؤون وهم في شأن آخر. فألسنتهم محفوظة عن السوء والفحشاء، وجوارحهم مصونة عن الشر والعدوان، فعبادة الله ﷻ، والإحسان إلى الناس، وتفريج كرباتهم مما يعنيهم. ومعصية الله ﷻ، والاعتداء على الناس، والانصراف إلى ما يضيع الأعمال والجهود والأوقات مما لا يعنيهم، قال رسول الله ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[1]

وإن مما يعينك على ترك اللغو: أن تعرف الغايةَ التي خُلقت لأجلها، والنهاية التي تنتظرك، فاعمل لها وانشغل بها ولا تنشغل عنها، وأن تعلم أن ما تعمله مسجل لك أو عليك، وأنت عليه مثاب أو معاقب، فانظر لنفسك أيَّ الأمرين تختار.

والصفة الثالثة: تزكية النفس وتزكية المال، قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ المؤمنون: ٤، إن الزكاة في أصل وضعها اللغوي تعني التطهير، والنفس الإنسانية مليئة بالنقائص والعيوب، وقد كُلِّف الإنسان بإصلاحها وتقويم عوجها، وضُمِن الفلاح لمن نجح في ذلك، قال ﷻ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس: ٩ - ١٠، فالمؤمن يطهر نفسه من الاعتقادات الفاسدة،

[1] مسند أحمد (3/ 259)، سنن ابن ماجه (2/ 1315)، سنن الترمذي (4/ 558).



والأفكار المنحرفة، والأخلاق السيئة، ويجعلها صافية خالصة من شوائب الرذائل، فإذا فعل ذلك فقد أفلح في الدنيا والآخرة.

وإن من الأخلاق النفسية الرذيلة: خلقَ الشح والبخل، الذي يجعل الإنسان مقصراً في أداء الحقوق التي عليه لغيره؛ ولذلك شرع الإسلام زكاة المال؛ لتطهير النفس وتطهير المال. فإخراج الزكاة مطهرة وأجر، وزيادة ونقاء، فلا يظن صاحب المال أن إخراج الزكاة نقص وخسارة، قال رسول الله ﷺ: "ما نقص مال عبد من صدقة"[1]

فإذا أردت الفلاح فزكِ نفسك وزكِ مالك، وإياك أن تطيع النفس في السير وراءها إلى أهوائها المحظورة، فمن أصلح نفسه صلحت دنياه وآخرته.

والصفة الرابعة: حفظ الفروج عن الحرام، قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾ المؤمنون: ٥ - ٧

إن الرغبة الجنسية فطرة وطبيعة في الإنسان البالغ تطلب من صاحبها التصريف والخروج، وقد جعل الله ﷻ لها سبيلاً صالحاً نظيفًا نافعًا هو الزواج، الذي هو سبب العفة والسعادة، والذرية وكثرة الأمة، وتعارف الناس وتقاربهم، وصلاح هذه الحياة.

قال ﷻ: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ ﴾ الروم: ٢١، هذا هو الطريق الصالح النقي لتصريف هذه الرغبة الجِبلية، وهو الذي يحفظ

[1] سنن الترمذي (4/ 562).



للإنسان شرفه وسمعته الحسنة بين الناس، ويعينه على طاعة الله ﷻ وعلى إصلاح عيشه.

فالحذرَ الحذرَ، والنجاةَ النجاة قبل الفضيحة في الدنيا والآخرة.

وعلى الأزواج أن يتقوا الله ﷻ في إعفاف زوجاتهم، وعلى النساء أن يتقين الله ﷻ في إعفاف أزواجهن، وعلى من لا يجد أن يصبر ويدعو الله ﷻ حتى يجعل الله ﷻ له فرجًا ومخرجاً، قال ﷻ: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ النور: ٣٣

والصفة الخامسة: أداء الأمانة، والوفاء بالعهود، قال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المؤمنون: ٨، الأمانة هي كل حق وجب على الإنسان حفظه وأداؤه لأهله، فعبادة الله ﷻ أمانة، والحكم أمانة، والوظيفة أمانة، والحقوق الزوجية أمانة، وتربية الأولاد أمانة، وردُّ الوديعة أمانة، والبيع والشراء أمانة، والأسرار التي يطلب كتمانها أمانة، والعلم أمانة، وإيصال الرسائل إلى أهلها كما هي عليه أمانة، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨

والعهود حقوق يجب الوفاء بها، وأعظمها العهد مع الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴿١﴾ ﴾ المائدة: ١، وخلف العهود علامة من علامات النفاق، قال النبي ﷺ: "أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة





منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[1]

ويقرب من العهود الوعودُ التي قطعها الإنسان على نفسه، فمن الإيمان ومن الكرم الوفاءُ بها لأهلها، قال ﷻ في صفة نبيه إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ ﴾ مريم: ٥٤، وكثرة إخلاف الوعود من صفات المنافقين، قال رسول الله ﷺ: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان"[2]

والصفة السادسة: المحافظة على الصلاة، قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ ﴾ المؤمنون: ٩، والمحافظة على الصلاة تعني الاستمرار عليها، والمداومة على إقامتها في وقتها بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، وشأن الصلاة في الإسلام في المنزلة المرموقة، ويكفي في مكانتها أنها الركن الثاني من أركان الإسلام، وأنها أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة.

إن هذه الصفات الصالحة التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات الكريمات كانت للمؤمنين من أسباب فلاحهم ودخولهم الجنة؛ فلذلك ذكر الله ﷻ الجزاء الطيب لأهلها عقبها فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ ﴾ المؤمنون: ١٠ - ١١، فذكر الله ﷻ استحقاقهم للفردوس بلفظ الوراثة التي هي من أعظم أسباب استحقاق المال، والفردوس أوسط الجنة وأعلاها،

---

[1] رواه البخاري (1/ 16)، صحيح مسلم (1/ 78).
[2] رواه البخاري (1/ 16)، صحيح مسلم (1/ 78).





كما قال رسول الله ﷺ: "فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن"[1]

"أرشدتنا الآيات إلى وجوب الاتصاف بالصفات السبع التالية، والقيام بالأفعال الآتية المستوجبة الخلود في الفردوس الأعلى من الجنان وهي:

1- الإيمان: وهو التصديق بالله ﷻ ورسله واليوم الآخر.

2- الخشوع في الصلاة: وهو الخضوع والتذلل لله ﷻ والخوف من الله سبحانه وتعالى، ومحله القلب، فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه، إذ هو ملكها، فالسكون دليل الاطمئنان، واستيقاظ الذهن، والاتجاه نحو الله سبحانه وتعالى، وبه يحصل جوهر الصلاة، وتتحقق غايتها المنشودة الصحيحة، وهو من فرائض الصلاة على الصحيح، وأساس قبولها، والظفر بثواب الله سبحانه وتعالى.

3- الإعراض عن اللغو: أي الباطل، وهو الشرك والمعاصي كلها، وكل ما لا حاجة فيه وما لا يعني الإنسان، وإن كان مباحاً.

4- أداء الزكاة المالية المفروضة، وتزكية النفس من الدنس والمعصية، وتطهيرها من أمراض القلب كالحقد والحسد والكراهية والبغضاء ونحوها.

5- حفظ الفرج، والتعفف من الحرام كالزنى واللواط، والإعراض عن الشهوات، وذلك يدل على تحريم المتعة (الزواج المؤقت بمدة زمنية محدودة، قصيرة أو طويلة) لأن المرأة المستمتع بها ليست زوجة بالفعل، بدليل أنهما لا يتوارثان بالإجماع، فلا تحل للرجل، لكن يدرأ الحد للشبهة.

[1] رواه البخاري (4/ 16)





6- أداء الأمانة ورعاية العهد والعقد: ومعنى الأمانة أو العهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً، وهذا يشمل معاشرة الناس والوعود وغير ذلك، والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما فيه قول أو فعل أو معتقد.

7- المحافظة على الصلاة: بإقامتها والمبادرة إليها أوائل أوقاتها، وإتمام ركوعها وسجودها.

فمن عمل بما ذكر في هذه الآيات، فهم الوارثون الذين يرثون فراديس الجنان، وينزلون فيها منزلاً كريماً، ويخلدون فيها على الدوام والبقاء، ويدخل في الأمانات جميع الواجبات من الأفعال والتروك، فصارت الآيات شاملة العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة"[1]

[1] التفسير المنير للزحيلي (18/ 14 – 16).





خلاصة صفات المؤمنين المفلحين

أرشدتنا الآيات إلى وجوب الاتصاف بالصفات السبع التالية، والقيام بالأفعال الآتية المستوجبة الخلود في الفردوس الأعلى من الجنان وهي:

الصفة الأولى: الإيمان والفلاح:

وهو التصديق بالله عز وجل ورسله واليوم الآخر.

الصفة الثانية: الخشوع في الصلاة:

وهو الخضوع والتذلل لله عز وجل والخوف من الله سبحانه وتعالى، ومحله القلب، فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه، إذ هو مَلِكُها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فإن الرحمة تواجهه، فلا يحركن الحصى"[1]، فالسكون دليل الاطمئنان، واستيقاظ الذهن، والاتجاه نحو الله سبحانه وتعالى، وبه يحصل جوهر الصلاة، وتتحقق غايتها المنشودة الصحيحة.

وهو من فرائض الصلاة على الصحيح، وأساس قبولها، والظفر بثواب الله سبحانه وتعالى.

الصفة الثالثة: الإعراض عن اللغو:

أي الباطل، وهو الشرك والمعاصي كلها، وكل ما لا حاجة فيه وما لا يعني الإنسان، وإن كان مباحاً.

الصفة الرابعة: أداء الزكاة المالية المفروضة:

أداء الزكاة المالية المفروضة، وتزكية النفس من الدنس والمعصية، وتطهيرها من أمراض القلب كالحقد والحسد والكراهية والبغضاء ونحوها.

[1] رواه الترمذي (2/ 219).





الصفة الخامسة: حفظ الفرج والتعفف:

حفظ الفرج والتعفف من الحرام كالزنى وفعل قوم لوط، والإعراض عن الشهوات. وذلك يدل على تحريم المتعة (الزواج المؤقت بمدة زمنية محدودة قصيرة أو طويلة)؛ لأن المرأة المستمتع بها ليست زوجة بالفعل، بدليل أنهما لا يتوارثان بالإجماع، فلا تحل للرجل، لكن يدرأ الحد للشبهة، ويدل أيضاً على تحريم الاستمناء.

الصفة السادسة: أداء الأمانة ورعاية العهد والعقد:

ومعنى الأمانة أو العهد يجمع كل ما يُحَمَّله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً، وهذا يشمل معاشرة الناس والوعود وغير ذلك. والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما فيه قول أو فعل أو معتقد.

الصفة السابعة: المحافظة على الصلاة:

بإقامتها والمبادرة إليها أوائل أوقاتها، وإتمام ركوعها وسجودها.

النهاية: جزاء المؤمنين المفلحين:

فمن عمل بما ذكر في هذه الآيات، فهم الوارثون الذين يرثون فراديس الجنان، وينزلون فيها منزلاً كريماً، ويخلدون فيها على الدوام والبقاء، ويدخل في الأمانات جميع الواجبات من الأفعال والتروك، فصارت الآيات شاملة العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة"[1]

[1] التفسير المنير للزحيلي (18/ 333 – 335).



الخاتمة

نحمد الباري ونشكره على فضله ونعمه ورحمته، ها نحن نخط بأقلامنا الخطوط الأخيرة لهذا الكتاب بعد رحلة كبيرة من الجهد والتعب والسهر، وقد عرضنا بهذا البحث بعد بحث وجهد عميق موضوع **صفات المؤمنين المفلحين**.

هذا وقد كانت رحلة ممتعة تستحق التعب والعناء، وهي كانت رحلة ارتقت بالفكر والعقل وقد عرجت بالأفكار المهمة لهذا الموضوع، وما هذا الجهد إلا نقطة في بحر العلم وجهد العلماء الذين سبقونا في العلم والبحث، وهذا الجهد هو قليل على البحث العلمي ولكن يكفينا شرف المحاولة، فإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان، وإن وفقنا فمن الله ﷻ، وقد **قال عماد الدين الاصفهاني**: "رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

وأخيراً لقد تقدمنا باليسير في العلم، ونرجو أن نكون قد وفقنا وينال رضاكم، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد ﷺ النبي الأمي وخير معلم والهادي والمبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد ﷺ وعلى آهله وصحبة أجمعين.

وفي الختام نسأل الله ﷻ أن نكون من عباده الصادقين الذين يتصفون بهذه الصفات، ومن المؤمنين المفلحين في الدنيا والآخرة، وأسأله أن يتقبل منا جميع أعمالنا، ويجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا، ويجعله خالصاً لوجه الكريم.

وآخرنا دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلي وسلم على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين



فهـــرس الـــقـــســـم الـــثـــانـــي

